كتاب

ضَيْحَةُ الحَقّ

تأليف

الشيخ أبي الوفاء الشيخ محمد درويش
رحمه الله وجزاه الجنة والرضوان

عني بطبعه وتحقيقه خادم العلم

عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

الطبعة السادسة

طبع على نفقة الشيخ عبد العزيز بن قاسم بن حمد آل ثاقب
وفقه الله لفعل الخير وبارك فيه

كتاب

صيحة الحق

تأليف

الفاضل أبي الوفاء الشيخ محمد درويش
رحمه الله وأجزل له الأجر والثواب

عني بطبعه وتحقيقه خادم العلم

عبد الله بن ابراهيم الانصاري

الطبعة السادسة

طبع على نفقة الشيخ عبد العزيز بن قاسم بن حمد آل ثاني
وفقه الله لفعل الخير وبارك فيه

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وأصحابه الهداة الذين حملوا شعلة الإسلام وساروا بها على درب دينهم القويم ، الذي رسمه لهم صاحب الرسالة ، فكانوا بحق نبراساً في تاريخ الإسلام نستضيءُ به كلما أدلجت أُمتنا في غياهب الجهالة ، وألمت بها المحن وادلهمت بها الخطوب واعتصرتها ريح السموم المهلكة ، التي تحطم كل شيء ، عقيدتها ، وقيمها ، وتقاليدها ، وتاريخها وآثارها . . وكل ما يربطها بدينها القويم الذي ليس لها ما تعتز به سواه .

وبعد : فإن فضل الله كبير على هذه الأُمّة المجيدة ـ أُمّة الإسلام ـ فقد حباها الله ـ جلت قدرته ـ بهذا الدين ، وتعهد بحفظه لها من الضياع .. إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

وإن من دواعي حفظ هذا الدين أن يهيءُ الله له دائماً على

مرّ الأزمان والعصور رجالا كراماً بررة يذودون عنه ، ويقيمون دعائمه ، ويثبتون أركانه في نفوس الناس . مرة باللسان وأخرى بالقلم.. فتكون لكلماتهم وقعاً طيّباً في النفوس الكريمة كما يكون لها وقع الصواعق المدمرة على قلوب اللئام .

ومن هؤلاء البررة الذين نذروا ألسنتهم وأقلامهم للذود عن هذا الدين عالم فاضل بر كريم هو الشيخ أبو الوفاء محمد درويش ـ رحمه الله تعالى ـ عضو الجمعية الشرعية في مصر ، وهو الذي عرفته المنابر والصحافة ردحاً من الزمن في صعيد مصر في النصف الأول من القرن العشرين ، وصعيد مصر في تلك الآونة ـ إن كنت لا تعرفه ـ فدعني أصفه لك :

كانت تلك الأرض الطيبة المسلمة ـ في ذلك الوقت ـ موطناً لكثير من العادات السيئة مثل : الثأر ، وتعظيم الأموات ، وزيارة القبور للتبرك بها.. إلى غير ذلك من الأمراض الاجتماعية التي عمت كثيراً من أرجاء العالم الإسلامي شرقه وغربه.. فكان أن هيأ الله لتلك الرقعة من

أرض الإسلام هذا الرجل البر الصالح فقام داعياً إلى الله في المساجد ، صائحاً أو صادحاً ينير للناس طريق الحق ، ويعرفهم أمور دينهم بالحجج القاطعة والأدلة الدامغة ، فكان من ثمرة جهوده الخيرة – على ما نعلم – كتابان وكلاهما في الدعوة إلى الله .

١ – كتاب « خواطر في الدين والخلق والاجتماع » .

٢ – وكتابنا هذا « صيحة الحق » الذي نقدمه للقارئ المسلم.

ومما يبين لنا أسلوب هذا الرجل العالم وخطته الهادفة التي اختطها للتاثير فيمن يدعوهم إلى الله ذلك العهد الذي سماه (عهد القارئ) والذي صدر به كتابه هذا « صيحة الحق » .

يقول القارئ الذي يقرأ الكتاب :

إذن فقد كان – جزاه الله كل خير – يدعو الناس ليبعدهم عن التعصب الأعمي ، ثم يدعوهم بعد ذلك لأن يكونوا عمليين لا سلبيين ، بأن يجعل منهم دعاة إلى الله يبلغون الناس ما عرفوا من الحق ولا يكتمونه ..

وقد شن ـ رحمه الله ـ حـرباً لا هوادة فيها ضد (طغيان البدع والخرافات) ، ولنستمع إليه وهو يقول :

(نظرت. فإذا الناس من حولي في بحر لجي متلاطم الأمواج من البدع والخرافات والإعراض عن الله تعالى خالق الأرض والسموات ، والإقبال على الأباطيل والترهات ، والتماس الحاجات من المخلوقين الضعفاء العاجزين ، بل الموتى الهالكين المقبورين والهتـاف بأسمائهم في السر والجهر . . إلخ) .

ثم مضى ـ رحمه الله ـ وتخير مسجداً من المساجد . وخصص لذلك وقتاً محدوداً في أيام معينة من كل أسبوع وشرع يتلو على الناس آيات الكتاب الكريم ويفسرها لهم حريصاً على دعوتهم إلى التوحيد الخالص ، وتحذيرهم من الالتجاء إلى غير الله كالتمسح بالقبور والطواف حولها ، واستغاثة الراقدين تحتها إلى غير ذلك من الأمور التي هي بالأعمال الجاهلية أشبه .

وقد قوبل في بداية الأمر بأحلاف الشيطان من الغوغاء الجهلة الذين ضاقوا بدعوته ذرعاً ، فشنوا عليه حرباً لا

هوادة فيها من الإشاعات والتهم الباطلة فماذا كان موقفه من هؤلاء . ؟

كان صاحبنا يردد هذا البيت من الشعر :

فما زادني الواشـــون إلا صـــبابة
ولا كثرة النـــاهين إلا تمـــاديا

* * * *

وقد سار ـ رحمه الله تعالى ـ على درب الحق صادحاً وشادياً والتف حوله الناس من كل صوب ، فبارك الله تعالى في أعماله وتخرّج على يديه تلاميذ كثر ، وكان له ولا شك فضل لا ينكر على النهضة الدينية التي شهدتها أرض الكنانة بعد ذلك ، فجزاه الله خير الجزاء وأكرم مثواه وحشره الله مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . . وحسن أولئك رفيقاً . .

وقد اطلعت على هذا الكتاب واستوعبت كل ما جاء به ونظراً لأن الطبعة الأخيرة (الخامسة) قد نفدت وكان بها كثير من الأخطاء المطبعية التي تذهب بالمعنى وتعطل القارئ عن الاستيعاب وألحقناه ببعض التعليقات اللازمة .

لذلك ، رغبت في إعادة طبعه ، ويشاءُ الله أن يطلب مني الشاب الناهض الشيخ عبد العزيز بن جاسم آل ثاني ، أن تكون طباعته على نفقته الخاصة احتساباً لوجه الله تعالى على روح أبيه المرحوم الشيخ قاسم بن حمدآل ثاني ، وزير التربية والتعليم ورعاية الشباب بدولة قطر ، فاستجبت لهذه الرغبة الكريمة التي أبداها وقمنا بتنقيح الكتاب ، وتقديمه في هذا الثوب القشيب إلى القارئ الكريم ، آملين من الله تعالى أن يجعل فيه الفائدة ، وأن يجزل المثوبة لمن ألّفه ولمن أنفق على طباعته ، ولمن وهب إليه ..

والله المـوفق للصواب .

عبد الله ابراهيم الانصاري

بسم الله الرحمن الرحيم

« الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعالَمينَ . الرَّحْمٰنِ الرَّحيمِ . مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ . إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإيَّاكَ نَسْتَعينُ . اهْدِنا الصِّراطَ الْمُسْتَقيمَ . صِراطَ الَّذينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ » آمين .

(افتتح المؤلف كتابه بسورة الفاتحة تبركاً بها لنيل المقاصد) .

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كما صَلَّيْتَ عَلَى إبْراهيمَ وَعَلَى آلِ إبْراهيمَ ، وَبارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كما بارَكْتَ عَلَى إبْراهيمَ وَعَلَى آلِ إبْراهيمَ ، في الْعالَمينَ ، إنَّكَ حَميدٌ مَجيد » .

(هذه صيغة الصلاة الإبراهيمية وهي أفضل الصيغ الواردة) .

قال الله تعالى :

« قُلْ يا أَيُّها النَّاسُ إنْ كُنْتُمْ في شَكٍّ مِنْ دِيني ، فلا أَعْبُدُ

الَّذينَ تَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ ، وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنينَ . وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكينَ . وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَالاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمينَ . وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحيمُ . قُلْ يَا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكيلٍ . وَاتَّبِعْ ما يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمينَ »(١)

جاءت هذه النداءات لعامة الناس للاعتماد على الله والثقة به وصرف كل العبادات له والتحذير عن دعوة غير الله .

وقال الله تعالى : « إِنَّ في ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ »(٢) .

---

(١) سورة يونس : ١٠٤–١٠٩ . (٢) سورة ق : ٣٧ .

وقال تعالى : « فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »(١) .

وقال ـ جل ذكره ـ حكاية عن نبي الله شعيب :

« قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ »(٢) .

يقول الله تعالى ـ حكاية عن نبي الله موسى عليه السلام ـ :

« وَيَاقَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ . تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ ، وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ . لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الْآخِرَةِ ـ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ ، وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ . فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ . إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ »(٣) .

---

(١) سورة البقرة : ١٨١ .
(٢) سورة هود : ٨٨ .
(٣) سورة غافر : ٤١ ـ ٤٤ .

عهد القارئ مع الكتاب

أعاهد الله لأقرأن هذا الكتاب مع الروية والإنصاف ، لا أتعصب لرأيي ، ولا لرأي أحد من الناس كائناً من كان ، ولا أتبع إلا الحق الذي جاء به كتاب الله وسنة رسول الله ، ولأجتهدن في إذاعة هذا الحق ما وجدت إلى نشره سبيلا[1] .

تذكرة للقارئ الكريم

قال الله تعالى : « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ، كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ »[2] .

(يذكرنا الله بما سوف يكون من حال المشركين) .

وقال تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ ، يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا

---

(١) يريد المؤلف التمسك بالكتاب والسنة على حد قول القائل :

فخذ بقول يكون النص ينصره ... إما عن الله أو عن سيد البشر

(٢) سورة البقرة : ١٦٦ — ١٦٧ .

لِلَّذينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا : أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ؟ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذينَ اسْتَكْبَرُوا : بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ باللهِ ، وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً ، وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا العَذَابَ ، وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ في أَعْنَاقِ الَّذينَ كَفَرُوا ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »(١)

يصور الله مآل المشركين الضالين بمنظر الأغلال في أعناقهم وبئس المآل .

وقال تعالى : « وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونا السَّبِيلَا . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً » . (٢)

وقال تعالى : « وَإِذْ يَتَحاجُّونَ في النَّارِ ، فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا

---

(١) سورة سبأ : ٣١ – ٣٣ . (٢) سورة الأحزاب : ٦٧ – ٦٨ .

وهذه صورة من صور الطغاة والمتكبرين الذين يعرضون عن الحق ويتحكمون بغير ما أنزل الله ويلجئون تابعيهم إلى الشقاء والضلال .

نَصِيباً مِنَ النَّارِ . قَالَ الَّذينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ، إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ »[1] .

وهذه صورة من صور الطغاة والمتكبرين الذين يعرضون عن الحق ويحكمون بغير ما أنزل الله ويلجأون بأتباعهم إلى الشقاء والضلال . فتلك مناجاتهم يوم العرض والحساب يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وغاية أمرهم أنهم يعلنون بأنهم مخلدون فيها والله قد أبرم حكمه ولا مناص عن أمره وإبرامه .

---

(١) سورة غافر : ٤٧ — ٤٨ .

مقدمات

- ١ -

أمل ورجاء

منذ أكثر من خمس وعشرين سنة ، يوم كان الشباب يمدني بآماله وأحلامه وطموحه ، كنت أُمني النفس بأن أقوم للوطن بخدمة نافعة ، وأقدم للأمة عملاً مثمراً ذا أثر ، كما كان يفعل أولئك الأفذاذ الذين كنت أقرأ تاريخهم ، فتمتلئ نفسي إعجاباً بهم وإكباراً لهممهم وتمجيداً لسيرهم ، وحرصاً على اقتفاء آثارهم .

وكنت قد تخطيت على الحياة عشرين ربيعاً ، والشباب يحفزني إلى العمل ، ويدفعني إليه دفعاً ، وشاء الله أن أكون مدرساً بإحدى مدارس المعلمين الأولية ، وأن يعهد إليّ في تدريس الدين من توحيد وفقه ، وتفسير وحديث وأخلاق . وما هي إلا أن أختبر الطلبة حتى تنكشف نفوسهم عن عقائد لا يرضى عنها الإسلام ، ولا يقرها الدين ، فقلت : قد سنحت الفرصة ، وحان وقت العمل ، ولا عمل أنفع من

تطهير عقول هؤلاء الشبان ، الذين تنتظرهم البلاد ليكونوا قادة لطفولتها البريئة ، وترتقبهم الأمة لتعهد إليهم في تربية أولادها وتثقيف فلذات أكبادها ، فإصلاح عقائد هؤلاء المعلمين إصلاح لعقائد الجيل الجديد ، لأنهم قادته ومربوه .

وكانت عقولهم مستعدة أحسن الاستعداد لغرس هذا النبات الطيب ، وتلقي العقائد الصحيحة ، فقد كانوا في زهرة العمر وغضاضة الصبا ، لم ترسخ في نفوسهم جذور المعتقدات الفاسدة ، ولم تصبح الخرافات ديناً مُهيمناً على قلوبهم ، وإنما هي أشياءُ سمعوها من البيئة التي نشؤوا فيها ، وسَرَتْ إلى أوهامهم من المحيط الذي يحيط بهم ، لم تبلغ حد الرسوخ والتمكن ، فما هي إلا أن يسمعوا الحق حتى يذعنوا له ، وتجل قلوبهم لذلك ويرجعوا إلى الهدى المستقيم .

ثم تمضي الأيام ، ويظفر هؤلاء بالشهادة التي دخلوا

المدرسة من أجلها ، ثم ينتشرون في البلاد رسل ثقافة ، ومصابيح هداية ، يلقنون الناشئين العقائد الصحيحة ، ويحولون بينهم وبين سريان الخرافات إلى نفوسهم البريئة وقلوبهم السليمة.

والعاقبـــة للتقوى ، والمستقبل للتوحيـــد الخالص إن شاء الله .

إنما الأعمال بالنيات

تعليق الناشر :

لقد جدّ المؤلف ـ رحمه الله ـ في عمله بنية صادقة صالحة ولا ريب أن نجاح الأعمال يتعلق بإخلاص نيـــة العامل . فجزاه الله خير الجزاء وهدى بعلمه عباده المؤمنين .

قوة الأمة بإيمانها

خير ما يوجه إليه المصلح اهتمامه بالناحية الدينية ، فإصلاح الا ُمّة من هذه الناحية يتضمن كل إصلاح ، وكل الصيد في جوف الفرا .

إن الأمّة العربية لم ترتق إلا بدينها ، ولم تسْمُ فوق الا ُمم والشعوب إلا بتمسكها بدينها ، ولم تبلغ من العزة والمنعة والكرامة والمنزلة التي لا منزلة فوقها إلا بعقيدتها : بسطت يدها على العالم ، وهابها الملوك والقياصرة ، وثلت عروش الأكاسرة ، وبُدّلت من بعد خوفها أمناً ، ومن بعد تفرّقها وحدة ، ومن بعد ضعفها قوة ، ومن بعد ذلهاً عزّاً ، ومن بعد أخلاقها الغليظة الجافية الشاذة ونفوسها المنهمكة في الفساد خلقاً عظيماً فاضلاً ، ونفوساً مطمئنة طيبة كريمة . كل ذلك بفضل إيمانها بدينها القيِّم الذي جاءها به النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخرجها به من الظلمات إلى النور ، ومن الشرك الدنس الدنيّ إلى التوحيد السامي الطاهر النبيل .

طغيان البدع والخرافات

نظرت فإذا الناس من حولي غرقى في بحر لجي متلاطم الأمواج من البدع والخرافات ، والإعراض عن الله تعالى خالق الأرض والسموات ، والإقبال على الأباطيل والترهات ، والتماس الحاجات من المخلوقين الضعفاء العاجزين ، بل الموتى الهالكين المقبورين ، والهتاف بأسمائهم ودعائهم في السر والجهر ، والقومة والقعدة ، والحركة والسكون ، ولدى كل عمل من الأعمال ، وفي كل حين ، وعلى كل حال .

غفلة عميقة عن القوي القادر القائم على كل نفس بما كسبت ، الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، ويرزق الخلق من السماء والأرض ، ويملك السمع والأبصار ، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويدبر الأمر كله .

ونسيان قبيح للعلي الأعلى ، (الذي خلق فسوى ، والذي قدّر فهدي ، والذي أخرج المرعى ، فجعله غثاءً أحوى) .

وذهول شنيع عن رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن

فيكون ، الذي إن يمسسك بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله . يصيب به من يشاءُ من عباده وهو الغفور الرحيم .

وفوضى مروعة تذوب لها أكباد المؤمنين ، وتذهب لها حسرات نفوس المُصلحين .

وإقبال الناس على الدنيا في ازدياد مطرد ، وحرصهم عليها في نمو ، وتكالبهم على حطامها بالغ الغاية .

والدين لا يكاد أحد ينظر إليه ، أو يأْبه له ، أو يفكر فيه أو يألم لما أصابه .

إنما هي الحياة تجري في نسق مطرد ، ونظام ثابت لا يتغير : نوم ويقظة ، وجهاد في سبيل العيش ينسى المرءُ فيه نفسه وأمانته وعفته وواجبه ودينه ، وحب للعاجلة قد استأْثر بالقلوب واستبد بها حتى لم يدع للآخرة مكاناً .

وطلاب الإصلاح يحز في نفوسهم الألم ، وتلذع قلوبهم الحسرة ، ويتمنون بجدع الأنف لو وجدوا سبيلا إلى تغيير هذه الحال . ولكن هيهات هيهات لما يبتغون .

— ٤ —

تفاقم الحال

لم أجد من حولي في هذا البلد أحداً يجهر بدعوة الناس إلى تغيير شيء من هذا الفساد ، أو التطهر من هذا الرجس ، إنما أسمع خطباء المساجد يدعون إليـــه ، ويحضون عليه . ويضربون بأعمالهم أسوأ المثل للناس ، فيقتدي بهم العامة ويسلكون سبيلهم ، حتى جرى الوادي وكان السَّيْل .

دفعتني هذه الفوضى إلى الجهر بكلمة الحق ، وأحسست دافعاً قوياً يدفعني إلى الدعوة إلى الإصلاح ، فقمت في بعض المساجد صادعاً بأمر الله الذي يهيب بالمسلمين جميعاً أن تكون منهم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويعدهم الفوز والفلاح إن هم امتثلوا أمره وأطاعوه .

وصادفت الدعوة عقولاً خصبة ، ونفوساً طيبة ، تقبلتها بقبول حسن ، فنبتت فيها نباتاً حسناً ، أولئك هم الشباب الأذكياء الناهضون ، والطبقة المستنيرة وأحرار الفكر والرأي

الذين لا يريدون أن يغلُّوا أنفسهم بأغلال الحرص على ما كان عليه الآباءُ والأجداد .

وتنكرت لي طائفة ولكنها معذورة ، عذرها واضح ، لم يطرق أسماعها هذا الكلام من قبل ، ولم يدعها أحـد إلى ما دعوتها إليه . سمعَت كلاماً غير مألوف لم تسمعه من أب ولا جد ، فظنته إلحاداً وفسوقاً ؛ وقالت مثل ما قال الأولون : إنّا وجدنا آباءنا على أُمة وإنّا على آثارهم مقتدون .

— ٥ —

العاقبة للتقوى

لزمت الدعوة حيناً من الدهر ، أطلع على الناس كل جمعة بكلمة أحارب فيها بدعة من البدع ؛ أو أكافح خرافة من الخرافات أو أدعو إلى سنة من السنن التي هجرها الناس حتى أصبحت في رأيهم بدعاً أو كالبدع .

والناس بين راض وساخط ، ومادح وقادح ، فما اطمأننت لرضا الراضين ، ولا جزعت لسخط الساخطين ، فما قمت بدعوتي ابتغاء رضا الناس ، ولا فراراً من سخطهم ، إنما قمت بها جهاداً في سبيل الله وابتغاء مرضاته ، فلم ألق بالا إلى ما يقول الراضون ؛ ولا إلى ما يتقول الساخطون .

وكنت واثقاً كل الثقة بأن هؤلاء الساخطين سيعرفون الحق يوماً ما . ويقبلون عليه راضين مغتبطين .

وكنت مطمئناً كل الاطمئنان إلى أن كلماتي ستترك الأثر المنشود في نفوس الناس وعقولهم ؛ وستزعزع أركان هذه العقائد الفاسدة عاجلا أو آجلا ؛ قريباً أو بعيداً ؛ وأن دعوة الإصلاح إن لم تظفر بمن يستجيب لها اليوم فستظفر غداً

الحرب العظمى

ثم كانت الحرب العظمى وشغلت الناس عن كل ما سواها ؛ وكان قصارى هم الرجل أن يحصل على قوت يومه ، وإن كان بعض الناس قد وجدوا فيها مغنماً كبيراً ، وتمنوا لو تدوم أمداً بعيداً ما دامت تملأُ خزائنهم ، وتفعم جيوبهم بالورق والنضار .

شغل حديث الحرب كل لسان ، وملأَ التفكير فيها ، والخوف من ويلاتها ، أو الطمع في جدواها كل فكر ، فلم يعد أحد يفكر في غير الحرب ونتائجها ، أو يتكلم في غير الحرب ، وما عسى أن يكون مصير الأمم والشعوب من بَعدها .

وانصرفت فيمن انصرف ، ولكن إلى ناحية أُخرى تتصل بآمالي ورغباتي ، فأَقبلت على أنواع من الدراسات تعينني على أمري وتيسر لي سبل دعوة الإصلاح التي شغلت شعاب قلبي ، واستبدت بكل قوى نفسي .

ووضعت الحرب أوزارها . وكنت أظن أنها بدلت عقائد الناس في الأوهام والخرافات بعد أن رأوا من ثمرات العقول ، ونتائج القرائح ما دهش له الناس جميعاً ، من سيارات تطوي الأرض طيًّا ، وطائرات تسمو على الجو ، وتسيطر على مملكة الهواء ، وغائصات تتخذ سبيلها في البحر سرباً ، وغازات سامة وخانقة ، ومضحكة ومبكية ، وذاهبة بالأبصار ، إلى غير ذلك مما أثمرت العقول الحرة ، والأفكار الجريئة المستنيرة .

فإذا العقول قد ارتفعت في كل شيء ، إلا فيما يتصل بالدين ، وإذا الناس خرجوا من الظلمات إلى النور ، ومن السكون إلى الحركة ، واتصلوا بالحياة اتصالا وثيقاً ، إلا فريقاً ممن يسمون أنفسهم أو تسميهم الدهماء رجال الدين ، ظلوا على جمودهم المعهود ، وضلالهم القديم .

وكانت الدراسات التي عنيت بها قد فتحت ذهني على آفاق جديدة من العلم ، ووجهتني توجيهاً جديداً ، فدرست بعض العلوم الرياضية والطبيعية ، وبعض اللغات الأجنبية ،

وشيئاً من القوانين وأُصول الشرائع ، ونلت بعض الشهادات والاجازات العلمية ، فاطمأنت النفس ببلوغ بعض ما تريد . على حد قول الشاعر :

وألقت عصاها واستقر بها النوى

كما قــر عيناً بالإياب المسافر

تنبيــه للمعلق :

لقد ذكر المؤلف في العبارة السالفة آنفاً : أن التقدم حصل بعد الحرب العالمية وأن العقول قد ارتفعت وخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن السكون إلى الحركة ، واتصلوا بالحياة إلا فريقاً ممن يسمّون أنفسهم برجال الدين إلى آخر عبارته .

الواضح أنه يقصــد بهذا بعض المتعصبين الذين يحرمون السعي في الأرض ويدعون أن الرزق ينزل على الإنسان بدون سبب ، ويرون أن العبادة هي الانفراد والانزواء عن العالم ، ويرون أن تعلم الصناعة والأعمال محرمة ، فعلى إثر هذا الجمود حصل التأخر للمسلمين ، حيث أن كثيراً من الناس كانوا يقتدون بهم .

عودة على بدء

يومئذ استأنفت الجهاد ، وعدت إلى مكافحة البدع والخرافات ، مستعيناً بالصبر ، معتصماً بالله ، واثقاً بوعده مطمئناً إلى نصره ، فقد قال الله تعالى : « يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » (١) .

ورأيت خير ينبوع للذكرى كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فقد قال تعالى : « فَذَكِّرْ بِالْقُرآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ »(٢) . وقال تعالى : « وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهمْ لَعِباً وَلَهْواً ، وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ ، لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ »(٣) . وقال : « وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِم لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ »(٤) . وقال تعالى : « وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَـةً أُخْرَى قُلْ :

---

(١) سورة محمد : ٧ .
(٢) سورة ق : ٤٥ .
(٣) سورة الأنعام : ٧٠ .
(٤) سورة الأنعام : ٥١ .

لاَ أَشْهَدُ ، قُلْ : إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ . وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ » . (١)

ذلك بأن القرآن كتاب الله الذي أنزله على رسوله الأمين ليبلغه للناس ، ويبينه لهم . وقد جمع فيه كل ما يكفل سعادتهم في معاشهم ومعادهم ، ولم يغادر شيئاً مما يضمن لهم الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة إلا بينه لهم كل البيان ، فهو نور يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم . وقد يسره للذكر ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب .

---

(١) سورة الأنعام : ١٩ .

اسرى الجهالة

ولكن الجهل استحوذ على الناس وضرب بينهم وبين القرآن حجاباً مستوراً ، فلم يتدبروا آياته ولم يلتمسوا ما فيه من الهدى والنور ، وراحوا يتخذونه تمائم ويعلقونه تعاويذ . وقد اتخذه بعض القادرين على العمل والكسب وسيلة سهلة وسبيلا ميسرة لكسب قوت اليوم ، يقرءُونه على القبور وفي المآتم والأفراح ، يقرءُونه لمن لا يستمعون له ولا ينصتون ، ويتلونه على من هم عنه لاهون غافلون ، لأنهم لا يتذوقونه ، ولا يدركون ما فيه من العظات والعبر ، كأن الله ما أنزله إلا لاستمطار شآبيب الرحمة على أجداث الموتى ورفات الذاهبين ، وكأنه لم ينزله لهداية الأحياء وتذكيرهم بأيام الله ، ودعوتهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم ، وكأنه لم يكن قانوناً سماوياً ، وشريعة إلٰهية خالدة ، أنزلها الله لسعادة البشر أجمعين .

- ٩ -

إنصراف عن الحق

انصرف الناس عن القرآن ، والتبعة على سادتهم ، وكبرائهم وعلمائهم الذين سولوا لهم أن تفهُّمَ القرآن إثم كبير ، وخطيئة لا تغفر ، وسيئة تضيق عنها أرجاءُ الأرض وآفاق السماءِ ، وذنب لا تسعه رحمة الله التي وسعت كل شيءٍ .

وكلما حاول أحد فهم آية من آيات الكتاب المبين ، وسأل عنها أحدهم ، أجابه : (إن من أكبر الأوزار أن تحاول فهم القرآن أو الوقوف على أسراره التي لا يحيط بها إلا الراسخون في العلم . ويكفيك أن تنظر في كتاب من الكتب التي وضعها العلماءُ الأجلاءُ ففيها غنية لكل طالب ، وكفاية لكل راغب ، ولا بد أن تقرأها على عالم يوضح لك غامضها ويبين لك خافيها) كأن القرآن لغز من الألغاز ، أو طلسم من الطلاسم ، أو أحجية من الأحاجي ، ونسوا أو تناسوا أن الله سبحانه يقول : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرآنَ لِلذِّكْرِ

فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ[1] » وأنه تعالى يقول: « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَاب »[2] ، وأنه يقول: « أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ؟ »[3].

لعـــل

تعليق من المحقق :

لعل ما ذكره المؤلف أمر كان يشاهده في كثير من أهل عصره وفي تلك الأقطار ، ولقد شاهدنا كثيراً من طلبة العلم إذا سئل عن تفسير آية من كتاب الله لا يجيب عليها ، ولا يبحث عن معناها ، ويزعم أن ذلك من الورع .

أما اليوم فقد كثر الباحثون والسائلون في تفسير كتاب الله ، وقررت التفاسير على طلاب العلم في المعاهد والمدارس الإسلامية ولا عبرة بالأقطار التي تركوا دراسة كتاب الله ، وتدريسه ، فقد والله لاقوا جزاءهم ، إذ أذلهم الله وأبعدهم عن الخير وأضحوا تلاميذاً لأسافل العالم يتلقون منهم من العلوم ما يلبسهم الذل والهلاك نسأل الله تعالى أن ينصر دينه ويعلي الحق أينما كان .

---

(١) ذكرة في سورة القمر في أربعة مواضع هي الآيات ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ .
(٢) سورة ص : ٢٩ . (٣) سورة محمد : ٢٤ .

مثل واقع

اطمأن الناس إلى هذه العقيدة الخاطئة الآثمة، وانصرفوا عن فهم القرآن المبين وتدبره واكتفوا بأن يستمعوا له إذا قرأه قاريء حسن الصوت، ليطربوا بألحانه وأنغامه، لا لينتفعوا بفرقانه وتبيانه، وقنعوا بأن يكلفوا أحد القراء أن يتلو لهم سورة «يس» مرات معدودة ليؤذوا بها - كما يزعمون - خصماً عنيداً، أو يقتلوا عدواً لدوداً، أو لتقضى لهم الحاجات وتحقق الرغبات، أو لتدفع الملمات، وتكشف الكربات، لقاء ثمن بخس دراهم معدودات.

ذلك مكان القرآن عندهم، ومنزلته فيهم، أما الذكرى، وأما الموعظة الحسنة، وأما التدبر، وأما الذكر، وأما الحرص على زيادة الإيمان بسماع آيات القرآن وتدبرها وفهمها، فتلك أمور لا تخطر ببال ولا تمر على خاطر.

ألم يعلموا أن القرآن كتاب الله أي خطابه لعباده، ورسالته إلى الناس كافة؟ ومن حق الرسالة أن تُقرأ، ومن واجب الخطاب أن يُفهم ليعمل بما فيه.

هب أن أباك بعث إليك بخطاب ، أفتراه راضياً عنك لو عمدت إلى كتابه فجعلته تميمة واتخذت منه عوذة تعلقها على بدنك ؟ أم تراه لا يرضى منك إلا أن تفض غلافه وتقرأه إن كنت قارئاً ، أو تلتمس من يقرؤه لك إن كنت غير قارئ ، وأن تعمل بما فيه وتنفذ وصاياه « وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ »[1] .

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن الله لا يرضى عن العبد المؤمن حتى يقرأ كتابه إن كان قارئاً ، أو يستمع إليه إن كان غير قارىء ، ثم يحاول أن يفهمه ليعمل بما فيه ، ويهتدي بما حوى من موعظة وهدى ونور .

أما أن يتخذه تميمة أو يتلوه على القبور ، أو يكسب به قوت اليوم ، فذلك ما لم يأذن به الله . ولكن دهماء الناس أعرضوا عن هذا كله ، وغرّهم في دينهم ما كانوا يفترون .

---

(١) سورة العنكبوت ٤٣ .

عزيمة

صح العزم على أن أتلو كتاب الله على الناس ، وأن أقفهم بقدر ما يسمح به الإمكان على ما وقفت عليه من معانيه وأسراره ومراميه ، وأبصرهم بما فيه من هدى ونور وأدب سام ، وخلق كريم ، ودعوة إلى الحق والخير والفضيلة ، وقصص عذب ، فيه العبرة والموعظة الحسنة ، وأنبههم إلى ما دعاهم الله إلى النظر فيه من آياته الكونية التي بثها في الآفاق ، وأقامها في ملكوت السموات والأرض ، ليزدادوا تبصرة وذكرى ، وإيماناً مع إيمانهم .

أجل ! إن الإقبال على تلاوة القرآن والاستماع إليه يزيد الإيمان ، ويثبت دعائم اليقين ، ويجلو عين البصيرة ، ويقف الإنسان في مقام الإحسان ، فيعبد الله كأنه يراه .

وإذا بلغ الإنسان هذه الدرجة طهرت نفسه من وضر الآثام ، وامتلأ قلبه إيماناً وتسليماً ، فازداد إقبالا على الله وحرصاً على مرضاته وبُعداً عما يسخطه ، وإذاً يكف عن

الناس يده ولسانه ، ولا يظلمهم بقول ولا فعل ، ويمنع عنهم أذاه ، وإذاً يصبح المسلمون إخـواناً متوادين ، متحابين متراحمين ، يفرح بعضهم لفرح بعض ، ويألم بعضهم لألم بعض ، وإذاً يستتب الأمن وتسود الطمأنينة ، ويستقر النظام ويعرف كلٌ ما له وما عليه ، ويؤدي واجبه ويقف عند الحد الذي رسمه له الشارع الحكيم ، فيستريح الحاكم وتقر عيون المحكومين.

أذلك خير أم تلك الكتب الجوفاءُ التي تجمع السمين والغث ، والحق والباطل ، والصدق والكذب ، وتلك الكتب التي ذاعت في الناس تروج الأباطيل والأكاذيب ، وتنشر الخرافات والترهات ؟. نبئوني بعلم إن كنتم صادقين .

تعليق للمحقق :

ان المؤلف يعنى بتلك الـكتب التى تشتمـل على مخالفات الشريعة وتحتوي على الاعتقادات الفاسدة وتحتوي على كثير من الخرافات والتصورات المعاندة لتحقيق صرف العبادات لله وحده .

مضاء وعزيمة

أمضيت هذا العزم ، وتخيرت مسجداً من المساجد ، وخصصت لذلك وقتاً محدوداً في أيام معينة من كل أسبوع وشرعت أتلو على الناس آيات الكتاب الكريم وأفسرها لهم بقدر ما أتاحه الله لي من الفهم والاطلاع على آراء ثقات المفسرين وكنت حريصاً على أن أدعو الناس إلى التوحيد الخالص كلما سنحت الفرصة ، وكلما مرت آية من آيات الدعوة إلى التوحد ، وما أكثرها في القرآن الكريم ، كنت أدعو الناس إلى ما دعاهم إليه الله تعالى من عبادة الله الواحد القهار ، والالتجاء إليه عند الحاجة ، والضراعة إليه وحده ، ولااستعانة به وحده ، وكنت أحذرهم الالتجاء إلى غير الله تعالى ، كما يفعل العامة وأشباههم من التمسح بالقبور والطواف من حولها ، واستغاثة الراقدين في أحضانها ، والنذر لهم ، ودعائهم والضراعة إليهم وتقبيل قبورهم . إلى غير ذلك من الأمور التي هي بأعمال الجاهلية أشبه ، وإلى الوثنية

أقرب . تلك الأمور التي ما تورط الناس فيها إلا لجهلهم بعادات الجاهلين وأحوالهم في عبادة أوثانهم . . .

ولو أُتيح لهم بعض الاطلاع على ما ضمنت أسفار التاريخ من ذلك لعلموا أن أعمالهم هذه لا تمتاز عن أعمال الجاهلية بشيء ، وأيقنوا أنها ليست من الإسلام في شيء . وإذاً لفروا منها فرارهم من الشرك الأثيم ، وتابوا منها كما يتوب المؤمن من الحنث العظيم .

التبين قبل الحكم

أقبل على شهود هذا الدرس فريق من الأذكياء المستنيرين من طلاب الحق ، وعشّاق العلم الصحيح ، كانوا قليلا أول الأمر ، ثم أخذ عددهم يربو شيئاً فشيئاً ، واندست في غمارهم شرذمة من الغوغاء الذين لا يكادون يفقهون حديثاً ، فحرفوا الكلم عن مواضعه ، ونقلوا عنا للناس كلاماً مشوهاً ، أبتر معكوساً . قالوا : إننا أنكرنا كرامات الأولياء ، وقالوا : إننا حرمنا الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - وقالوا . . وقالوا . . وسامحهم الله فيما قالوا .

وأقبل الناس من كل حدب ينسلون . يريدون أن يسمعوا إلى هذا الذي ينكر كرامات الأولياء ، ويحرم الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - وكان جمهورهم من العقلاء الذين لا يريدون أن يحكموا على الناس بالظنة عملا بقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمَنُوا إن جَاءَكمْ فاسِقٌ بنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أنْ تُصِيبُوا قَوْماً بجَهَالَةٍ فَتُصْبحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ »(١)

(١) سورة الحجرات : ٦ .

فما كادوا يُلقون بعض الأسئلة ويتلقون الجواب عنها ، حتى اطمأنت نفوسهم ، وزال عنها الريب ، وواظبوا على الدرس لا ينقطعون ، وأخذوا أنفسهم بالدفاع عن الحق ما وجدوا إلى ذلك سبيلا .

تعليق المحقق :

إيضاح عن فضل المأثور

لا ريب أن المأثور الوارد عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خير من الابتكار ، فمثلا لو صلى شخص على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالصيغة الإبراهيمية الواردة ، وصلى آخر بصيغة ابتدعها هو وذكر الرسول بمائة إسم من التمجيد والثناء لا شك أن الصلاة بالصيغة الإبراهيمية أفضل وأكثر اجراً من الصيغة الثانية .

فالخير كل الخير فيمن اتبع

والشر كل الشر فيمن ابتدع

ضايقة لا أبالي بها

ترامت إلي الأنباءُ بأن بعض الناس سيئوا بدرسي ، وضاقوا به ذرعاً ، فجعلت ذلك الكلام خلف أذني ، ولم أمنحه من عنايتي نصيباً .

وكيف أعنى بشيءٍ من ذلك وأنا لا أبغي بدرسي إلا وجه الله تعالى ، لا أسأل الناس عليه من أجر ، ولا أريد منهم جزاءً ولا شكوراً ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت . أمنيتي التي تصبو إليها نفسي ، ويهفو قِبلها قلبي ، أن أرى الناس من حولي لا يدعون غير الله تعالى ولا يجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقهم الله من الحرث والأنعام ، فإن صدقت أحلامي وتحققت أمنيتي فيابشرى ، وعلى الدنيا العفاءُ ، وإن حال دون ذلك الجهل والجمود والتعصب والعناد ، فلأواصل الجهاد حتى تتحطم هذه الطواغيت ، أو يقضي الله أمراً كان مفعولا .

لست أزعم أني أعلم الغيب ، ولست أتكهن بما لا أعرف

ولكني أعلم أن الشيطان سول لفريق من الغوغاء أن يضيقوا بهذه الدعوة وهذا الدرس، حتى صار قذى في أعينهم، وشجى في حلوقهم، وغصة في صدورهم، فطفقوا ينسجون حوله شباك الدس والكيد والنمائم، ويرمونني وإخواني بالزيغ والمروق والإلحاد، وما يصغر بجانبه الزيغ والمروق والإلحاد، ويخلقون حولنا جـواً وبيئاً من الريبة وسوء الظن، ويرموننا بكل قبيحة عوراء، ويتقربون إلى من يعبدون بالنيل منا، والطعن في ديننا، وكثر الخراصون والواشون واللائمون. فكنت كما قال الشاعر:

فما زادني الواشون إلا صبابة

ولا كثرة الناهين إلا تمـاديا

- ١٥ -

كتمان الحق

في الحق أن هؤلاء الناقمين منا ، الثائرين بنا ، معذورون كل العذر .

عذرهم أنهم وجدوا آباءهم وأجدادهم كذلك يفعلون .

عذرهم الجهل المطبق الذي هم فيه غارقون .

عذرهم أنهم لم يجدوا من يدلهم على خطئهم ، أو إصلاح ما فسد من عقائدهم .

عذرهم جبن بعض العلماء الذين لا يخجل أحدهم أن يرفع عقيرته قائلا : (إن كان الحق يثير عليك العامة فاكتمه) !!

يا للعجب العاجب ! كيف يدعون إلى كتمان الحق وإطفاء نوره ، وتلك مصادمة جريئة آثمة للقرآن الكريم ، ومحادة لله تعالى ومخالفة عن أمره .

ألم تر إلى ربك كيف يقول : « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ »(١)

ألم يأخذ الله عليهم ميثاق الكتاب ألاّ يقولوا على الله إلّا الحق ودرسوا ما فيه ؟.

ألم يقل الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ، أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا ،فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ».(٢)

ألم ينزل الله تعالى في محكم كتابه : « إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ، وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلا يُزَكِّيهِمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .(٣)

يا عجباً كل العجب ! يأخذ الله العهد والميثاق على الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه ، ويُنذر

---

(١) سورة آل عمران : ١٨٧ .
(٢) سورة البقرة : ١٥٩ــ١٦٠ .
(٣) سورة البقرة : ١٧٤ .

الذين يكتمون ما أنزل من البينات والهدى من بعد ما بينه للناس في الكتاب بلعنته ولعنة اللاعنين ، ويوعدهم بأنه لا يكلمهم يوم القيامة ، ولا يُزكيهم ، وبأنه أعد لهم عذاباً عظيماً ، ثم يقوم فريق من الذين يزعمون أو يزعم لهم الناس أنهم ورثة الأنبياء فينادون بكتمان الحق إن أثار عليهم العامة ؟ لا أقر الله أعين الجبناء .

ماذا : أيستهينون بلعنة الله ولعنة اللاعنين ؟ ألا يشفقون من النار يأكلونها في بطونهم ؟ أهيِّن في تقديرهم ألا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يُزكيهم ؟ أو تراهم يستسهلون عذاب الله الأليم بجانب غضب العامة وسخطهم وإعراضهم ؟ إن هذا لهو الخذلان المبين .

حدثوني : متى يتعلم العامة إن كتمتم الحق عنهم أو حجبتموه عنهم وأخفيتموه عليهم ؟.

وما أدري : أأنتم قادة العامة ، أم العامة قادتكم ؟ ، أأنتم مرشدوا العامة أم العامة مرشدوكم ؟ ، أأنتم مرجع العامة أم العامة مرجعكم ؟ .

لا يخيفكم من العـامة إلا أنكم لا تـأتمرون بينكم بمعروف ، ولا تتعاونون على البر والتقوى ، ولا تبرءُون من الحسد الذي دب فيكم وهو داءُ الأمم قبلكم ، فإذا قام مؤمن شجاع يدفعه صدق إيمانه ، وقوة يقينه ، إلى أن يصدع بـأمر الله ، ويجهر بكلمة الحق ، وتعاظم النا س ما قال ، فجاءُوكم يستفتونكم في أمره ، ارتعدت فرائصكم جُبناً وفرَقاً ، وأبيتم إلا أن تكتموا الحق ، وتحملوا على المصلح حملة شعواء ابتغاء مرضاة العامة ، ونزولا على حكمهم ولو أنكم أطعتم أمر ربكم ، وتعاونتم على إعلاء كلمة الحق ، وكنتم يداً واحدة ، ورأياً واحداً ، لم يجد العامة بداً من النزول على حكمكم والاهتداء بهديكم ، ولكنكم تخاذلتم وارتبتم واختلفتم ، وغفلتم عن وصية ربكم : « أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ »[1] فسلط عليكم مَن يخيفكم .

هل آثر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رضا العامة فلم يصدع بالحق الذي أمر الله أن يصدع به ؟ وهل حرص على رضا الناس فكتم ما أمره الله أن يبلغه ؟ وماذا عمل

---

(١) سورة الشورى : ١٣ .

بقول الله تعالى : « يا أَيُّهَا الرسولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاس »[1] ، وقوله تعالى : « نَبِّئُوني بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »[2] .

وهل كان الناس الذين بعث فيهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا عامة أُميين بشهادة القرآن الكريم ، قال تعالى : « هُوَ الذِي بَعَثَ في الأُمِّيينَ رَسُولاً مِنْهمْ ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ »[3] .

فلو أنه خاف ثورتهم ، أو رهب جانبهم ، أو أشفق من تنكرهم له وإعراضهم عنه ، للبث الحق مكتوماً إلى يوم يبعثون .

أم تريدون أن يظل الحق خفيًّا على الناس جميعاً إلا فريقاً من العلماء كما كان يصنع كهنة آمون وفتاح ،

---

(١) سورة المائدة ٦٧ .
(٢) سورة الأنعام ١٤٣ .
(٣) سورة الجمعة ٢ .

وأزوريس وغيرها من آلهة المصريين القدامى ، يوم كانوا يعرفون الحق ولكنهم كانوا يخفونه على العامة ، ليظلوا في غيهم يعمهون ، ولينعموا بما كانوا يقدمونه لهم من القربان والنذور وثمرات النخيل والأعناب ، وما ذرأ الله من الحرث والأنعام ، فتمتلئ به جيوبهم ، وتخصب به جنبات دورهم ويملكون به الضياع ويشيدون به القصور ، وينعمون في ظلال الثراء والناس عنهم غافلون .

ألم يقل لكم ربكم : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)[1] ، فما لكم لا تتأسون بنبيكم - صلى الله عليه وسلم - في شجاعته ومضاء عزمه ، وقوة جنانه ، وصدق إيمانه ، ومتانة يقينه ، وحرصه على إعلان الحق ولو كره المبطلون ؟.

يا قوم ، عار عليكم أن تتواصوا بكتمان الحق ، والله تعالى يقول : « وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنسانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ »[2]

---

(١) سورة الأحزاب : ٢١ . (٢) سورة العصر .

ولا جرم أنهم لم يتواصوا بالحق ليكتموه ويخنقوه ويطفئوا نوره ، بل تواصوا به ليعلنوه ويحيوه وليرفعوا مناره ، وتواصوا بالصبر على ما يلقون من المكاره في سبيل إعلانه . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . وماذا يفيد الإنسان لو كسب الدنيا وخسر نفسه وآخرته .

سعادة

بسطت عذر هؤلاءِ كما قلت آنفاً ، وعفوت عنهم ، وصفحت عما نالوني به من أذى ، اقتداءً بأُسوتنا الصالحة وقدوتنا الحسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين كان يقول : (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) .

وظلت القافلة تسير سبع سنين دأباً ، وصخرة الحق قائمة تصمد لكل من يريد أن ينالها بأذى ، أو يمسسها بسوءٍ .

ولكن الشيطان أبى إلا أن ينفذ وعيده ، ويحقق تهديده فأغرى بعض أوليائه فسعوا بي إلى الحاكم قائلين : (إن هذا الدرس يعرّض الأمن العام للخطر) والحاكم حريص على أن يستتب الأمن في المكان الذي تعهد إليه حراسة الأمن فيه - وظنهم صادقين ، فسرعان ما أصدر أمره بوقف الدرس ، ففرح الشيطان ، وبشر قبيله في الخافقين ، وفرح الغوغاءُ ، وتساقوا أقداح الشراب من بارد وحار .

وكانت مظاهرة تجمعت فيها الغوغاءُ ، وساروا في الشوارع

والأزقة يحملون الأعلام الحمر والصفر والسود ، والطبول تدق بين أيديهم وهم يهتفون : ظهر الحق ! ظهر الحق).

ولو أنهم هتفوا : خنق الحق ووئد الحق ، أو ظلم الحق أو مات الحق ، لأصابوا شاكلة الصواب وكانوا صادقين .

ومالي أقول ذلك ، ولا جرم أن الحق قد ظهر لو كانوا يعلمون . وقد أيده الله وشد أزره . ولكن الحق الذي ظهر هو حقي لا حقهم .

لماذا !!

لأنه لم يجسر أحد في كل هذا الزمن الطويل على مناظرتي ، ولم يتقدم أحد ليثير معي نقاشاً أو حواراً ، أو ليسألني دليلا أو برهاناً .

وكنت على أتم الاستعداد للإجابة عن أسئلتهم لو سألوني ، ولإقامة الحجة على صدق ما أقول لو التمسوا الحجة ، ولإقناع كل منصف يريد الآية المقنعة ، والبرهان الدامغ .

ولست أدري ماذا كان يخيفهم مني ، أو يصدهم عن لقائي ، بلى .. إنهم يعلمون أن من أبدى صفحته للحق هلك ، فآثروا العافية ، وسلكوا طريق الوشاية والدس ، وهو طريق لا يكلف مناظرة ولا جدالا . وهم يعلمون أن حجتهم داحضة عند كل من يصطنع الحق ويحتكم إلى الله ورسوله ، ومن ذا الذي يجسر أن يناهض حجة القرآن أو حديث سيد ولد عدنان ؟ .

نصر من الله

سلَّمت أمري لله تعالى ، إليه يرجع الأمر كله وإليه المصير ، ولزمت داري ، ولكني لم أنقطع عن الدعوة إلى الله ، ولم ينقطع أصحابي عن الجد في نشر هذه الدعوة ، بل لقد ازدادوا قوة على قوتهم ، وتفانوا في سبيل إعلاء صوت الحق ، حتى أصبح في كل ناحية داع جريء .

ولقد كان منع الدرس بغير مناقشة ولا مناظرة برهاناً قوياً أقنع العقلاء بأني على حق فيما أدعو إليه ، ولولا ذلك لناظروني وأفحموني .

وأقبل عليّ الناس يهنئونني بالنصر ، ويعلنون صحبتهم لي ، ومناصرتهم لدعوتي « وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ »(١) .

---

(١) سورة الحج ٤٠ .

برح الخفاء

لم تذهب الأيام حتى انجلت الغمّة وبرح الخفاءُ ، ووقف الحاكم الذي أغروه على وجه الحق في أمري ، فأذن لي في إلقاء محاضرة في دار جماعة الشبان المسلمين ، حضرها جم غفير من الناس ، ولو قلت : إنه أكبر عدد شهد محاضرة في هذه البلدة ، لم تكن مجانباً لحـق فيما تقول . وقد تحديت جميع الحاضرين أن يقاطعوني ويردوا على كلامي بغير رحمة إن رأوا فيه انحرافاً عن قصد السبيل ، أو سمعوا حكماً لم يدعمه الدليل .

ولما انقضت المحاضرة قام رئيس الجماعة ، وهو قاض شرعي[1]. ذكي الفؤاد ، حي الضمير ، حر الرأي ، تام الثقافة - قام وأعاد كلمة التحدي ، فلما لم يصب من يتصدى للرد ، قال : إذاً كلنا متفقون على شكر المحاضر

---

(١) أرى لزاماً علي أن أسجل هنا أنه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود سعد ، بارك الله عليه .

على هذه المحاضرة القيّمة .. وتم لنا النصر ، وحقت كلمة ربك : « إِنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ »[1] .

(١) سورة الحج : ٣٨ .

محاضرات

تألفت في البلدة جماعة من جماعات الخير ، واتخذت لها داراً ، ثم دعتني لإلقاء بعض المحاضرات في دارها ، فألقيت بها محاضرتين شهدهما عدد ضخم من أهل البلدة ومن أهل القرى المجاورة ، وكان لهما أحسن الأثر في رد كثير إلى الصواب .

كانت هاتان المحاضرتان سليطاً أُلقي على النار فزادها اشتعالا واضطراماً ، فغلت مراجل العداوة والبغضاء في الصدور حتى كادت تطير بها ، وسرعان ما خرجت من مخبئها عريضة من العرائض ، ظلت تسير في سرعة وخفاء ، وتنتقل من يد إلى يد ، وكل يد تلوّثها بتوقيع ، وأفضى بها المسير إلى مكتب المدير ، في المديرية ، ثم انتقلت إلى مكتب المأمور في المركز ، وكان استدعاء وسؤال وجواب ، واستشهاد ، واقتناع . وكان المأمور من الأذكياء ، فسرعان ما أدرك الحق ، وعرف الباعث على هذا الشغب ، والدافع إلى هذا التشنيع ، وكتب الله لنا على يديه نصراً مؤزراً ،

ثم كانت محاضرة ثالثة شهدها المأمور وبعض الحاكمين ، ولم يبرحوا الدار حتى أعلنوا رضاهم وشكرهم على الملأ .

نكأت هذه المحاضرة ذلك الجرح الممدّ ، فاشتد ألمه وانبعث منه الحمى ، ولم يجد أصحابه ما يفتأ عنهم هذا الألم إلا أن يجمعوا كيدهم ويسرّوا النجوى ويبيتوا أمرهم بليل على أن يستعْدُوا على المدير ليخفت صوتي ، أو يحول بيني وبين صيحة الحق أن أعلنها في صدق وصراحة ، وأرسلها في قوة من فوق منبر المحاضرات .

وكان مما أخذوه عليّ وأفضوا بالشكوى منه إلى المدير أني أقول : إن فيضان النيل يحدث من الأمطار التي تهطل في الجهات الاستوائية .

وكان عجب ، وكان سؤال !

قال المدير : فمن أين يأتي النيل إذاً ؟

قالوا : يأتي من الجنة كما قال السادة العلماء في كل كتب الفقه !

وساد صمت رهيب ، وابتسم المدير في لطف وقال :

سآمره أن يجعل النيل يأتي من الجنة !

وبعث إليّ . . ولا أدري كيف بلغ النبأ مسامع إخواني ، فلم أكد أبلغ المديرية حتى وجدتهم قد ملؤوا رحابها ، وانتشروا في نواحيها في عدد قلما يجتمع مثله لأمر .

وجاء المدير في الموعد المضروب فاستقبله خطيب[1] منهم بخطبة ضافية حسر فيها القناع عن وجه الحق الذي ندعو إليه ، ثم ناشده الحق والعدل ألا يحول دون استمرار هذه المحاضرات . فرد عليه المدير رداً جميلا ، وكان مما قاله : أي عاقل يحترم نفسه وأمته يحول دون نور العلم أن يكتسح ظلمات الجهالة ؟

ثم تقدم إليهم في الانصراف ودخل مكتبه واستدعاني ودار بيني وبينه حديث دلني على أن الرجل عالم جليل ، غزير العلم ، جم الذكاء ، واسع الاطلاع ، أريحي الطباع ، يكاد ذكاؤه يكشف حجب السرائر ، وينفذ إلى أعماق

---

(١) أسجل هنا والأسى يفعم فؤادي أنه صديقنا المرحوم الأستاذ شاكر أحمد علي حسن ، خريج دار العلوم الذي كان مدرساً بالمدرسة الثانوية بسوهاج . أسبل الله على جدثه شآبيب الرحمة والرضوان .

الضمائر ، ويعرف دخائل النفوس وخفايا الصدور ، تحس وأنت جالس بين يديه أنك بين يدي أستاذ من أكبر أساتذة الجامعات يُلقي درساً في الحكمة العالية .

ولقد قصّ عليّ أقصوصة طريفة ملخصها : أن شخصاً في إحدى القرى كان عالمها ، وإمامها ، ومستشارها ، وكاتب عقودها ، ومفتيها ، ومأذونها ، وكل شيء فيها ، أي جميع الوظائف قد تجمعت في شخصه ، وكل وظيفة من هذه الوظائف كانت مورد رزق ، ومصدر كسب .

ومَنَّ الله على أحد سكان هذه القرية بغلام أحسن تربيته وعلمه القرآن ، وأوفده إلى الأزهر . فمكث فيه حتى نال شهادة العالمية ، ثم عاد إلى قريته . فاحتفل أهلها بقدومه احتفالا رائعاً .

وسوس الشيطان في صدر العالم القديم أن العالم الجديد سيحتل مكانه ، ويثل عرشه ، ففكر في أن يكيد له ، ويسقطه من أعين مواطنيه من أول يوم يجلسون فيه إليه .

واجتمع الأهلون في ساحة القرية ليرحبوا بعالمهم الجديد

وقد جلس بينهم ، والتفوا من حوله معجبين به مكبرين له .

وإنهم لكذلك وإذا بقرة تمر بهم وتروث ويسأل العالم القديم العالم الجديد قائلا : يا مولانا الشيخ ! أهذا الروث جوهر أم عرض ؟ (والجوهر في نظر العلم ما قام بنفسه ، والعرض ما قام بغيره . ولكن الجوهر في نظر العامة الشيء الثمين أو الحجر الكريم) .

ويجيب العالم الجديد بلغة العلم طبعاً : إنه جوهر يا سيدي !.

فقال العالم القديم : أهذا الذي تعلمته في الأزهر ؟ ، أبعد أن قضيت في الأزهر اثني عشر عاماً أنفق فيها أبوك عليك جميع ما كسبه في زهرة شبابه تعود إلينا لتقول : إن هذه الأقذار جواهر ؟ وأنت خبير بأثر ذلك القول في أنفس العوام .

ثم أضاف المدير قائلا :

يبدو لي أن هذه الطائفة من طراز هذا العالم القديم .

ولست أُفشي سراً إن قلت للقاريءُ الكريم : إن آخر كلمة قرعت سمعي من كلماته الحكيمة : ثق أني لا أنصر الجهل على العلم [1].

ثم أذن لي في إعادة الدرس الموقوف ، فتم لنا بتوفيق الله النصر المبين ، وله الحمد والشكر والثناءُ الحسن الجميل .

---

(١) أسجل هنا أن هذا الرجل العظيم هو سعادة العالم الكبير الأستاذ أحمد بك عبد القادر ، أطال الله بقاءه .

الصلح خير

كان من ثمرة هذا النصر أن دُعيت لإلقاء كلمة في الحفل الذي أقامه المجلس المحلي لذكرى المولد النبوي ، وتسامع الناس ، ودفعتهم غريزة حب الاستطلاع إلى أن يهرعوا إلى السرادق المهيأ لذلك في كثرة لم يُعهد لها في هذه البلدة مثيل ، حتى غص بهم المكان ، وضاقت رحابه .

وكتب الله لعبده التوفيق ، فكانت الكلمة جامعة قضت على مزاعم الأفّاكين والمتقوّلين ، وخرج الناس وهم يقولون : قُتل الخراصون . وآمن الحاضرون جميعاً بأن ما يذاع عني إنّما هو إفك وزور .

فت هذا النصر في عضد الثورة فاستخزت ، ورهمتها الذلة وغشيتها فترة الكآبة .

فتطوع فاضل من الأخيار الموفقين ، أخذته بها رحمة ، فدعا قضاة المحكمة الكلية الشرعية ليعقدوا صلحاً بيني وبينها ، واجتمعنا في دار جماعة الشبان المسلمين ، وقدمت

الثورة شكواها ، فقال قائل منهم : إنه يرمينا بالشرك ، وأخرج من ثيابه جريدة فيها مقال لي عنوانه : «وثنية»[1]. وقرأ منه فقرات آخرها : قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله أباح لكم هذا الشرك .

قال الرئيس الفاضل : والله إنه لشرك ، والله إنه لشرك ، والله إنه لشرك . ثم قصّ على الحاضرين حكاية كان لها في نصرة الحق أحسن الأثر .

قال : كان الشيخ الببلاوي ـ رحمه الله ـ إماماً وخطيباً ومدرساً للعلوم الشرعية في مسجد السيدة زينب . وله تلميذ من المتصلين به ، المحبين له ، رأى فيما يرى النائم أن جرس (التليفون) يدق فتناول المسمعة وقال : من ؟ فسمع هذا الجواب : السيدة زينب ، أين الشيخ ؟

ـ الشيخ في حلقة الدرس ، ماذا تريدين ؟

ـ قل له يعلم الناس إذا طلبوا شيئاً أن يطلبوه من الله تعالى ، فهو جدير بإجابتهم إلى ما يطلبون . قل له يعلمهم

---

(١) نشر في كتابي « خواطر في الدين والخلق والاجتماع » ـ ص ٨ .

ألا يؤذوني بطلب الحاجات ، فإني لا أملك قضاء الحاجات ولا يقضي الحاجات إلا الله الواحد القهار .

قصّ التلميذ على شيخه هذه الرؤيا ، فقضى الشيخ بقية أيام حياته متوفراً على تعليم الناس هذه الحقيقة لا يعدوها إلى غيرها .

حكى الرئيس هذه الحكاية ، فسمعها القوم فوجموا وجوماً شديداً ، كأنما أحسوا الهزيمة تحيط بهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، وظهر الحق أبلج يشع منه النور ، ويفيض من وجهه الضياءُ .

ولست أورد عليك بقية ما وقع في حفلة الصلح إبقاءً عليك ، وحرصاً على مشاعرك ، وحسبك من شر سماعه ، وحسبك أن تعلم أن الله توّج الجهاد بالنصر المبين .

كان رئيس المحكمة[1] وعضواها[2] من العلماء النابهين

---

(١) هو حضرة صاحب الفضيلة العالم العامل والورع التقي ، الأستاذ الشيخ علي عبد الوهاب . أطال الله بقاءه ومتعه بالعافية في بدنه كما متعه بالعافية في دينه.

(٢) هما العالمان العاملان الورعان التقيان : صاحب الفضيلة المرحوم الشيخ محمد الحفني ، وصاحب الفضيلة المرحوم الشيخ محمد خالد باقي ، تغمدهما الله برحمته وأسكنهما جنات النعيم .

العاملين الذين لا يخشون في الحق لومة لائم ، تعرف في وجوههم نور التقوى ، وتلمح في جباههم إشراق اليقين . عقول راجحة ، وآراءٌ سديدة ، واطلاع واسع ، وعلم جم غزير ، في صراحة المؤمنين ، وشجاعة المجاهدين ، ورزانة القضاة الكاملين .

سمعوا منهم ومني ، فنضح كل إناءٍ بما فيه ، وفاضت صدور بما فيها من غل ، واندلعت ألسنة تسيل بما وراءها من إحن وأحقاد ، وأجرى الله العدل على ألسنة القضاة الموفقين فقضوا بالحق لهذا الضعيف الذي يرجو رحمة الله .

وكان صلح وكانت مصافحة ، وكان صفح ، أما من قِبلي فكان صلحاً صادقاً صريحاً ، وأما من قِبلهم فيدفعني حسن الظن إلى أن أراه كذلك ، وإنما العلم عند الله .

وأسأل الله أن يكفينا شر الغواة الذين لا يتركون أديماً صحيحاً ولا يدعون أحداً مستريحاً .

نهاية

ولست أحدثك عن الذين عادونا على السماع ، من غير تثبت ولا تبين ، ولست أحدثك عن إخوان قُدامي غدروا وخانوا بعهد الإخاء ، ولم يقدروا على كظم العداوة والبغضاء فبسطوا إلينا ألسنتهم بالسوء . ولست أحدثك عن أشخاص رأيت أسماءهم في صدور العرائض فصرفتني عن رؤية سائر الأسماء ، وما كنت أحسب أن الإسفاف يبلغ منهم هذا المبلغ ، وكنت أظنهم آخر من يفكر في مثل هذا النكر الأثيم .

ولست أحدثك عن الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم ، ليشهرن بنا في كل مجلس وناد ، ولست أحدثك عن الذين أفتوا بكفرنا وبطلان صلاة من يقتدي بنا ، ولست أحدثك عن الذين حرموا إلقاء السلام إلينا ، وأوجبوا هجرنا وقطيعتنا .

لست أحدثك عن هؤلاء ولا عن أمثالهم ممن نالنا منهم أذى كثير أو قليل ، فقد صم الصبر أذن الشماتة ، وجدع

العفو أنف الانتقام ، وسمل الصفح عيون العتب ، وجبَّ الصلح ما قبله ، وحقت كلمة ربك : « وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِي هي أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ، وَما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَما يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ »[1] « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَواتُ وَالْأَرْضُ ، أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ »[2]

والله سبحانه وتعالى على ما نقول وكيل « إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً »[3] ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العظيم .

أبو الوفا محمد درويش

٢٩ ربيع الآخر سنة ١٣٥٦هـ.

---

(١) سورة فصلت : ٣٤ ، ٣٥ . (٢) سورة آل عمران : ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٣) سورة النساء : ٤٠ .

بيان

غرضي في هذا الكتاب أن أبسط لك بعض المسائل التي تحدثت فيها إلى الناس ، فأثارت ما أثارت من العجيج والضجيج ، وأحدثت ما أحدثت من الشقاق والمحادّة ، وأن أقدم لك الأدلة التي تزيل شبهتك ، وتذهب الشك عنك ، وتملؤك يقيناً واقتناعاً .

وهل وراء كلام الله حجة تلتمس ؟ وهل بعد القرآن الحكيم بينة تراد ؟ وهل في كلام الرسول الصادق الأمين ريبة لمرتاب ؟.

أفلا يرضيك أن نحتكم إلى الله ورسوله كما قال تعالى « فإنْ تَنازَعْتُمْ في شَيءٍ فَرُدُّوهُ إلَى اللهِ وَالرَّسولِ ، إنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً »(١) . وكما قال تعالى : « وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيءٍ فَحُكْمُهُ إلَى اللهِ »(٢) .

---

(١) سورة النساء : ٥٩ .

(٢) سورة الشورى : ١٠ .

وأنت خبير بأن الردَّ إلى الله تعالى هو الردُّ إلى كتابه المبين، وأن الردَّ إلى الرسول هو الردُّ إلى السنة المطهرة، وهما ـ ولله الحمد ـ منا على طرف التمام، لا يشق علينا تناولهما، ولا يعيينا الرجوع إليهما، ولا يعجزنا الاحتجاج ببيانهما.

أسأل الله أن يلهمنا الإنصاف، وأن يجنبنا الاعتساف، وأن يعصمنا من أن نكون كهؤلاء الذين قال الله تعالى فيهم « وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ، وإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ. أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا، أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ، بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »[1].

وأبتهل إليه أن يوفقنا برحمته لنكون من الذين قال فيهم: « إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ: أَنْ يَقُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »[2] وبالله نتأيّد، وعليه نعتمد، لا رب غيره، ولا مأمول إلا خيره.

---

(١) سورة النور: ٤٨ ـ ٥٠. (٢) سورة النور: ٥١.

التوحيد

لا إله إلا الله ، ومحمد رسول الله

أبدأ بكلمة التوحيد ، لأنها عَلم الإسلام وشعاره ، فلا يدخل فيه الإنسان ولا يحسب من أهله عند الله وعند الناس إلا إذا نطق بها لسانه ، وآمن بها قلبه ، وهي رمز الإيمان بالله ، والاعتصام بطاعته ، وإخلاص الدين والعبادة لوجهه الأعلى .

وهي أفضل ما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - والنبيون من قبله ، بها يسعى النور بين أيدي المؤمنين والمؤمنات وبأيمانهم « يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ، بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا : انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ، قِيلَ : ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ ، فَالْتَمِسُوا نُوراً ، فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ ، بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ، وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ؟ قالوا : بَلَى ، وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ

وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ، حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللهِ ، وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرورُ . فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذينَ كَفَروا مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ »[1] .

بقدر إيمان الإنسان بهذه الكلمة واطمئنانه إليها يكون نور قلبه ، فكلما قوي الإيمان بها عظم ذلك النور حتى يجلو ظلمات الشهوات والشبهات ، ويضيءُ للمؤمن صراط الله المستقيم ، فيتبعه ولا يتبع السبل التي تتفرق به عن سبيله ، وإذا اتبع الإنسان صراط الله المستقيم أفضى به إلى دار النعيم حيث يستمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم ، وذلك أقصى ما يصبو إليه قلب المؤمن ، وتطمح إليه نفسه ، فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ ، وَمَا الْحياةُ الدُّنْيا إِلاَّ متاع الْغُرُورِ .

وقد آن أن أقفك على حقيقة معنى هذه الكلمة الطيبة ، لتكون على بينة من أمر عقيدتك ، وتحوط إسلامك بسياج منيع ، يحول دون تسرب الشرك الظاهر أو الخفي إليه ،

---

(٣) سورة الحديد : ١٢ – ١٥ .

ولتكون من الذين أنعم الله عليهم وجعلهم من أهل الكرامة والخلود في دار المقامة .

الإلٰهُ في اللغة : المعبود ، فكل شيء اتخذ معبوداً . فهو إلٰه في نظر متخذه .

واشتقاقه إما من أله : أي عبد ، لأنهم يعبدونه ، أو من أله : أي تحير ، لأنهم يتحيرون في صفاته ، أو من أله إليه : أي فزع ، لأنهم يفزعون إليه عند الشدائد ، ويلوذون به عند الكروب .

وعلى كل فالعبادة تجمع هذا كله ، فمن عبد شيئاً فإنه ينسب إليه قوة فوق قوى البشر ، يتحير في كنهها ، ويفزع إليه عند الشدة ، ويلوذ به لدى الكرب .

والله : عَلم على الذات الواجب الوجود ، المفيض لجميع النعم ، المستحق لجميع المحامد ، المتصف بكل كمال ، المنزَّه عن جميع شوائب النقص سبحانه وتعالى .

وإذاً ليس هناك إلٰهٌ على الحقيقة إلَّا الله سبحانه وتعالى .

أمّا ما يلوذ به المشركون ، ويفزعون إليه في الشدائد ، ويطلبون منه ما لا يطلب إلا من الله ، سواء عليهم أسموه إلٰهاً أم لم يسموه فليس بإلٰه ، ولا يستحق مما يوجه إليه من العبادة شيئاً .

فمعنى لا إله إلا الله : لا معبود بحق إلا الله .

ولكن الأمر يفتقر إلى مزيد بسيط ، وفضل بيان ، فقد استحوذ الجهل على الدهماء ، وضاقت الأفكار عن الإحاطة بالمعاني الشاملة ، وعجزت البصائر عن إدراك الأسرار العتيدة والمرامي البعيدة .

فاعلم أنك إذا قلت : أشهد أن لا إله إلا الله ، فمعنى ذلك أنك تعتقد اعتقاداً جازماً لا تشوبه شائبة شك أنه لا خالق إلا الله ، ولا رازق إلا الله ، ولا مدبراً للأمر إلا الله ، ولا متصرفاً في ملكوت السموات والأرض إلا الله ، ولا مستحقاً للعبادة إلا الله .

وإذا عملت بمقتضى هذه العقيدة فإنك لا توجه أي نوع من أنواع العبادة إلا لله ، فلا تدعو إلا الله ، ولا تضرع وتذل

إلا لله ، ولا تسأل إلا الله ، ولا تستعين إلا بالله ، ولا تفزع عند الكرب والضر إلا إلى الله ، ولا تقسم إلا بالله ، ولا تنظر إلا لله ، ولا تخلع على مخلوق صفة من صفات الله ، فلا تنسب إلى أحد علم الغيب ، لأن الغيب لله ، ولا ترجو من أحد كشف الضر ، لأنه لا يكشف الضر إلا الله ، ولا تخشى أن يمنع أحد عنك خيراً ، فلا راد لفضل الله ، ولا تهتف عند قيامك وجلوسك ، وحركاتك وسكناتك ، إلا باسم الله ، ولا تخضع في العبادة إلا لشريعة الله ، ولا تعبد الله إلا بما شرعه الله وبلغه رسول الله ، وقصارى القول أن تعتقد أن الأمر كله لله ، وأن الفضل بيد الله .

لقد دعا الأنبياءُ جميعاً إلى التوحيد ، وقد حكى الله عنهم ذلك في كتابه العزيز ، ليكون تبصرة لمن يتبصر .

قال الله تعالى : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ ، فَقَالَ : يا قَوْمِ ، اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ، إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ »[1] . وقال تعالى : « وَإِلَىٰ عَادٍ

---

(١) سورة الأعراف : ٥٩ .

أَخَاهُمْ هُوداً ، قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إلٰهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلا تَتَّقُونَ ؟ »[1] . وقال تعالى : « وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صالِحاً قالَ : يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إلٰهٍ غَيْرُهُ »[2] . وقال تعالى : « وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ، قالَ : يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إلٰهٍ غَيْرُهُ »[3] .

وقال تعالى فيما أُنزل على خاتم النبيين سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « قُلْ : هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ . وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ » . وقال تعالى : « وَإِلٰهُكُمْ إلٰهٌ وَاحِدٌ ، لَا إلٰهَ إلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ »[4] وقال تعالى : « فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إلٰهَ إلَّا اللهُ »[5] .

ذلك هو التوحيد الخالص الذي يتضمن من محبة الله تعالى ، والخضوع لسلطانه ، وكمال الانقياد لأمره ، وإخلاص العبادة له ، وإرادة وجهه الأعلى بجميع أقوالك وأعمالك ، ومنعك وعطائك ، وحبك وبغضك ، ما يحول بينك وبين

---

(١) سورة الأعراف : ٦٥ .
(٢) سورة هود : ٦١ .
(٣) سورة هود : ٨٤ .
(٤) سورة البقرة : ١٦٣ .
(٥) سورة محمد : ١٩ .

الأسباب الداعية إلى المعاصي أو الإصرار عليها ، وما يدفعك إلى الأخذ بأسباب الطاعات كلها حتى تعبده حق العبادة ، وتتقيه ما استطعت .

وليس التوحيد مجرد إقرار بأنه لا خالق إلا الله ، وأنه رب كل شيء وخالق كل شيء ، فقد كان عبّاد الأوثان مقرّين بذلك وهم مشركون ، قال تعالى : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ »[1] ، فلابد من الجمع بين الاعتراف بوحدانيته ، وعدم الالتجاء إلى غيره فيما لا يقدر عليه إلا هو ، حتى تتم لك نعمة التوحيد الخالص من الشوائب .

* * * *

وإذا قلت : أشهد أن محمداً رسول الله ، فمعنى ذلك أنك تعتقد مخلصاً من كل قلبك أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو رسول الله الذي أرسله الله إلى الناس كافة ، ليبلغهم رسالة ربهم ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، فبلغ ـ عليه الصلاة والسلام ـ رسالة ربه لم يكتم منها حرفاً

---

(١) سورة العنكبوت : ٦١ .

ولم يدخر وسعاً في هداية أُمته إلى سبيل الفوز بالسعادة الحقة في الدنيا والآخرة ، لم يترك شيئاً يقرب إلى الجنة ويبعد عن النار إلا أمر به ، ولم يدع شيئاً يقرب إلى النار ويبعد عن الجنة إلا نهى عنه .

ومن لوازم إيمانك برسالته أن تعتقد أن السعادة كل السعادة في طاعته ، وأن الشقاء كل الشقاء في مخالفته ، من أطاعه فقد أطاع الله ، ومَن عصاه فقد عصى الله . وأنه لا ينطق عن الهوى ، فلا يأمر إلا بما أمر الله به ، ولا ينهى إلا عما نهى الله عنه .

وألا تقدم على قوله قول أحد مهما ترسخ قدمه في العلم ويعل كعبه في التقوى ، وأن يكون أحب إليك من ولدك ووالدك والناس أجمعين ، ومن نفسك التي بين جنبيك ، فإن لم يكن أحب إليك من ولدك ووالدك والناس أجمعين ونفسك التي بين جنبيك ، لم تكن مؤمناً .

روى البخاري بسنده المتصل عن عبد الله بن هشام أنه قال : (كنا مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب ، فقال له عمر : يا رسول الله ، لأنت

أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي . فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : لا والذي نفسي بيده ، حتى أكون أحب إليك من نفسك . فقال عمر : فإنه الآن والله لأنت أحب إليّ من نفسي . فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : الآن يا عمر » ! .

ويلزم من هذا الحب ألا تقدم بين يديه ، وأن تدافع بكل قوى نفسك عن سنته ، وأن تجعله أسوتك الحسنة في عبادتك ومعاملتك وشأنك كله ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

ذلك هو الإيمان الحق ، لا إيمان الذين يزعمون أنهم يشهدون أن محمداً رسول الله ، وأنه أحب إليهم من أنفسهم ثم يقدمون أقوال مشايخهم على قوله ، وإذا دعوتهم إلى اتباع سنته ، تولوا عنك وهم معرضون . يقولون : لا ندري ما أمر به شيوخنا أطعنا ، وما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا اتبعنا . وما دروا أنهم بذلك يهدمون إيمانهم وهم غافلون .

الشرك

لعل الله هداك إلى الرشد ، وبصرك بمواقع الحق ، فعرفت التوحيد الذى تلوته عليك حق المعرفة ، وعلمته علم اليقين وميَّزته من الشرك الممقوت ، وإنه لظلم عظيم .

ولقد كنت خليقاً ألا أكتب لك في الشرك كلمة واحدة ، ولكن فريقاً من الناس قد يقع لديهم هذا الكتاب وقد يحتاجون إلى بسط في القول وزيادة في البيان ، فلا أضن عليهم بما يشفي صدورهم ، ويبرئ علتهم . فأقول :

الأصل في الشرك أن يوجه العبد أي نوع من أنواع العبادة لغير الله تعالى ، أو يعتقد أن لغير الله أثراً فوق ما وهبه الله من الأسباب الظاهرة . وأن لشيء من الأشياء سلطاناً على ما خرج عن قدرة المخلوقين وهو اعتقاد من يعظِّم سوى الله مستعيناً به فيما لا يقدر عليه المخلوقون .

ومن أنواعه أن يتخذ من دون الله نداً يحبه كحب الله . وينسب إليه من التدبير والتصرف ما لا يقدر عليه إلا الله . ويتقرب إليه بأنواع من العبادات لا يتقرب بها إلا لله .

فينحر له ويطوف من حوله ويلتمس منه جلب الخير وكشف الضر . ويقف بين يديه خاشعاً خاضعاً ذليلا ضارعاً .

ومشركو العالم جميعاً متمرغون في هذه الحمأة الوبيئة . مرتطمون في تلك الهوة السحيقة .

يشهد بذلك ما قصه الله علينا في القرآن الكريم ليحذرنا مصيرهم ويدلنا على سوء ماأُعد لهم من عذاب الهون .

وأخبرنا الله تعالى أنهم يقولون في الجحيم لآلهتهم التي عبدوها من دون الله ، وأحبوها كحب الله : « تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفي ضَلَالٍ مُبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ »(١) .

وما هؤلاء المجرمون إلاسادتهم وكبراؤهم وقادتهم الذين أغروهم باتخاذ الأنداد . وحببوا إليهم ذلك الشرك الأثيم .

والمشركون جميعاً يقرّون بأن الله وحده هو الخالق الرّازق المحيي المميت مدبر الأمر . وأنه خالق كل شيء

---

(١) سورة الشعراء : ٩٧ — ٩٩ .

ورب كل شيء، ويعترفون بأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق ولا تحيي ولا تميت. قال الله تعالى: «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ. وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ؟ فَسَيَقُولونَ: اللهُ! فَقُلْ: أَفَلاَ تَتَّقُونَ؟ فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ، فَماذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ؟ فَأَنَّى تُصْرفونَ؟[1]» وقال تعالى: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ: مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ؟ لَيَقُولُنَّ: اللهُ! فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ؟»[2] وقال تعالى: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ: مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا؟ لَيَقُولُنَّ: اللهُ! قُلِ: الْحَمْدُ للهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ»[3]. وقال تعالى: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ؟ لَيَقُولُنَّ اللهُ! فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ؟»[4]، فها هم أولاء يشهدون بأن الله منفرد بصفات الربوبية كلها من خَلْق ورزق وإحياء وإماتة، وإنزال غيث وتسخير للشمس والقمر.

---

(١) سورة يونس: ٣١، ٣٢.
(٢) سورة العنكبوت: ٦١.
(٣) سورة العنكبوت: ٦٣.
(٤) سورة الزخرف: ٨٧.

وكل ما يضيفون إلى آلهتهم من الفضل. وينسبون إليها من العمل أنها تشفع لهم عند الله. وأنها تقربهم إليه زلفى.

قال تعالى: «وَيَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ: هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ. قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بما لا يَعْلَمُ في السَّمَواتِ وَلاَ فِي الْأَرْضِ. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمّا يُشْرِكُونَ!»[1]. وقال تعالى: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى. إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ. إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ»[2].

المشركون يحبون آلهتهم كحب الله. ويغضبون لها كما يغضبون لله، بل أكثرهم لا يغضبون لله. قال تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ»[3]. وقال تعالى: «وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ»[4]. وإذا دعاهم الداعي إلى

---

(١) سورة يونس: ١٨.
(٢) سورة الزمر: ٣.
(٣) سورة البقرة: ١٦٥.
(٤) سورة الأنعام: ١٠٨.

عبادة الله وحده . والإعراض عن هذه الأباطيل . أخذتهم العزة بالإثم . وغضبوا أشد الغضب ، واشمأزت قلوبهم ، وقالوا : « أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً واحِداً إِنَّ هَذَا لَشيءٌ عُجَابٌ . وانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ : أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ . إِنَّ هَذَا لَشَيءٌ يُرادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذا في الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ . إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلاَقٌ . أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ؟ »[1] .

يا للعجب ! قاتل الله الأفكار الضيقة ، والعقول القصيرة المظلمة ، يعترفون بأن الأمر كلُّه لله ، وبأنه خالق كل شيء وربه ومليكه ثم يغضبون هذا الغضب إذا دعوا إلى عبادته وحده . لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون .

لقد سجل الله عليهم هذا الجمود وهذا الغباء ، فقال تعالى : « وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَواتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيما كَانُوا فِيهِ

---

(١) سورة ص : ٥ — ٨ .

يَخْتَلِفُونَ »[1] . وقال تعالى : « ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكمُ للهِ العَلِيِّ الْكبيرِ »[2] .

وإن تعجب فعجب أن ترى هؤلاء الحرّاص على آلهتهم ، المتشبثين بأهدابهم ، المتهالكين عليهم ، المتفانين في حبهم ، إذا جد الجد ، وحزَبَ الأمر ، واشتد الكرب ، وفدح الخطب ونزلت النازلة ، واستحكمت حلقات اليأس : نسوا هذه الآلهة الزائفة ، وأعرضوا عنها إعراض من يوقن أنها لا تغني عنه شيئاً ، ولا تملك له نفعاً ولا ضراً ، وبسطوا إلى الله أكف الضراعة لاجئين إلى حمى رحمته ، عائذين إلى كنف حمايته ، لائذين بحصن وقايته ، دعوه مخلصين له الدين ، وضل عنهم ما كانوا يفترون .

برهان ذلك قول الله تعالى : « وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ في الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُورًا »[3] . وقوله عز شأنه : « وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا

---

(١) سورة الزمر : ٤٥ ، ٤٦ .
(٢) سورة غافر : ١٢ .
(٣) سورة الإسراء : ٦٧ .

نَجّاهُمْ إِلَى البَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتّارٍ كَفُورٍ »[1]. وقوله تبارك اسمه : « هُوَ الَّذي يُسَيِّرُكُمْ في البَرِّ وَالْبَحْرِ ، حَتّى إِذَا كُنْتُمْ في الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِها جاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ. وجاءَهُمُ الموجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحيطَ بِهِمْ ، دَعَوا اللهَ مُخْلِصينَ لَهُ الدِّينَ : لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشّاكِرينَ ، فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ »[2]. وقوله تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السّاعَةُ ، أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقينَ . بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ماتَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ وَتَنْسَوْنَ ماتُشْرِكُونَ »[3] وقوله تعالى : « قُلْ : مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ البَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشّاكِرينَ. قُلْ: اللهُ يُنَجّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ »[4].

يا حسرة على المسلمين ! ما زال الشيطان يعدهم ويمنيهم

---

(١) سورة لقمان : ٣٢ .
(٢) سورة يونس : ٢٢ ، ٢٣ .
(٣) سورة الأنعام : ٤٠ ، ٤١ .
(٤) سورة الأنعام : ٦٣ ، ٦٤ .

ويوسوس لهم ويغريهم حتى أوشك أن يرد فريقاً منهم إلى لون من الشرك الأثيم .

ألم يتورطوا فيما تورط فيه المشركون من قبل ؟ ألم يزعموا أن أصحاب القبور يقرّبونهم إلى الله زلفى ؟ ألم ينذروا لهم ؟ ألم يشدّوا إليهم الرّحال ويقرّبوا لهم القربان ؟ ألم يحلقوا عندهم رءُوس الولدان ؟ .

ألم يدعوهم على بعد الدار وشط المزار ؟ ألم يسألوهم شفاء الأمراض وقضاء الحاجات ؟ ألم يستغيثوا بهم في الملمات ويستنجدوا بهم في الكربات ؟ ألم يخشوا سطوتهم . ويخافوا انتقامهم إن لم يوفوا نذورهم ؟ ألم يشفقوا أن يموت أولادهم ، أو تتلف أنعامهم ، إن قصّروا في أداء ما فرضوا على أنفسهم ؟ ألم يأخذوا من تراب قبورهم ما يلتمسون به شفاء الأمراض وبرء الأوصاب ؟ .

ماذا أقول؟ كل هذا وشر من هذا قد فعله بعض المسلمين ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

لقد صدق الفاروق ـ عليه الرضوان ـ إذ يقول :

(يوشك أن ينقض عرا الإسلام عروة عروة من جهل عادات الجاهلية) ، وفي الحق أن المسلمين ما ورّطهم في هذا المنكر إلا جهلهم المطبق بعادات الجاهلية .

ارجع إلى أسفار التاريخ وتعرّف أحوال الجاهلية عند العرب واليونان والرومان والمصريين والفرس والهند والصين ، فماذا ترى ؟ ترى أن آلهتهم التي اتخذوها ، وأوثانهم التي عكفوا على عبادتها ، أصلها نصُب وتماثيل أقاموها على قبور صالحيهم لتذكرهم بما كانوا يوصونهم به من الفضائل والخلق الكريم ، فلما بعد العهد بهم خلف من بعدهم خلف نسوا ذلك الغرض ، واتخذوها آلهة تعبد ، وتقرّب إلى الله وتشفع عنده .

قيل : إن اللات معبود ثقيف في الجاهلية كان رجلا صالحاً كريماً يلت السويق للحاج . فلما مات أقاموا على قبره تمثالا للذكرى ، فلما تراخى العهد عبدوه من دون الله .

وقال حبر الا ُمة عبد الله بن عباس – رضي الله عنه – : إن وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً كانوا قوماً صالحين . فلما ماتوا أقام قومهم على قبورهم التماثيل للذكرى . ولما

تقادم الزمن عبدوها من دون الله ، وروى البخاري بسنده المتصل ، عن السيدة عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها (مارية) فذكرت ما رأت فيها من الصور ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله» .

ولقد نكب المسلمون بعبادة القبور نكبة كادت تخرج بهم من التوحيد الذي ما جاء الإسلام إلا للدعوة إليه ، إلى ضروب من الشرك الذي كافحه الإسلام وحاربه بكل سلاح .

قيل : إن السبب في هـذه النكبة أن بعض الصوفية لما اضطروا إلى إخفاء أمرهم لمحاربة الفقهاء لهم صاروا يضعون الرموز والاصطلاحات الخاصة بهم ، ولا يسمحون لأحد أن ينضوي تحت لوائهم إلا بعـد أن يأخذوا عليه العهود والمواثيق ، ليكتمَن أسرارهم ولا يبوح بها لأحد ، وبعد أن يخضعوه لامتحان عسير ، واختبار دقيق طويل ، وصاروا يحتمون على من يريد أن ينتظم في سمطهم أن يكون طالباً أول

الأمر ثم مُريداً فسالكاً ، وكانوا يمتحنون أخلاق الطالب وأطواره زمناً طويلا ، حتى إذا تبين لهم أنه صادق العزم ، صحيح الإرادة ، أمين على الأسرار ، أخذوه بالتدريج رويداً رويداً .

وجعلوا للشيخ على مريده سلطاناً لا يقوم له بشيء ، حتى جعلوا المريد بين يديه كالميت بين يدي الغاسل ، أو كالريشة في مهب الرياح ، لا يباح له أن يعارضه أو يناقشه ، بل يتقبل جميع أقواله بالخضوع والتسليم ، ويطيعه طاعة عمياء لو أمره بمعصية أو بما فوقها .

ثم كانت الداهية الدهياء ، والداء العياء ، فأحدثوا إظهار قبور من يموت من شيوخهم ، وحضوا على العناية بزيارتها وشدُّوا الرحال إليها لتذكر سلوكهم ومجاهدتهم وأحوالهم . ولم يمض طويل الزمن حتى أصبحوا يعظمون هذه القبور تعظيماً دينياً ، مع اعتقاد أن لأصحابها سلطاناً غيبياً ، وقدرة تفوق الاسباب التي ارتبطت بها المسببات بحكمة الله تعالى ، وأصبحوا يعتقدون أنهم بهذه القدرة يديرون الكون ، ويتصرفون كما يشاءون ، ويقضون حاجات مريديهم والمستغيثين بهم أينما كانوا . فيالله للمسلمين !.

ألوان من الشرك

وهذه ألوان من الشرك جدير أن تفـــر منها ، وأن تجتنبها ، وأن تنهي الناس عنها ، وأن تحارب الوباء ، وأن تطهر منها قلبك وقلوب الناس ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

من ذلك : طلب الحاجات من الموتى ، والاستعانة بهم ، والتوجه إليهم . وهذا أصل شرك العالم كما قدمنا آنفاً . فإن الميت قد انقطع عمله ، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فهو أجدر ألا يملك ذلك لمن استغاث به أو سأله قضاء حاجته ، أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها ، والميت في حاجة إلى من يدعو له ويسأل الله له الرحمة والرضا والمغفرة ، كما علَّمَنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا زرنا قبور المسلمين أن نسلم عليهم ، ونسأل لهم العافية . ولكن الناس تعدوا الحدود الشرعية وزاروا القبور مستغيثين مستعينين ضارعين خاشعين ، يسألون أصحابها قضاء الحاجات ودفع الملمات ، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون .

ومنها : الحلف بغير الله تعالى ، فقد صح عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (من حلف بغير الله فقد أشرك)

وما أكثر ما أنت سامع من المسلمين من الحلف بغير الله ، كالنبي والصالحين والآباء والأجداد ، والعين والحياة ، والأولاد والأحفاد ، والشرف والذمة . وقد عم هذا البلاء . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ومنها : سجود المريدين لمشايخهم إذا اقترفوا ذنباً أغضب الشيخ ، فقد رأيت من يسجد بين يدي الشيخ ثم يهتف بهذه العبارة وهو في غاية الذل والخضوع : « تائب وراجع إلى الله ، يا إخواني اقبلوني » .

قل لهذا المريد الجاهل : إن كنت أذنبت إلى ربك فتب إليه ، وادعه تضرعاً وخفية ، وإن كنت أذنبت إلى الشيخ فاعتذر إليه ، وما لك تتوب إلى الشيخ والإخوان ؟ وماذا يضرك غضبهم وإعراضهم لو أنك تبت إلى الله توبة نصوحاً فرضي عنك وأقبل عليك ؟ وفي المسند أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتى بأسير فقال : اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد ، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « عرف الحق لأهله » .

والشرك كثيرة ألوانه ، متعددة أنواعه ، متشعبة سبله ومسالكه ، عصمنا الله وإياكم من شره ، ونجّانا من شراكه ، ووفقنا للتوحيد الخالص حتى نعبده مخلصين له الدين حنفاء ، ولا نشرك بعبادته أحداً ، ولا ندعو من دونه أحداً .

إلحاقاً للبحث

من تعليق المحقق :

ومن العادات اللئيمة التي يلجأُ إليها كثير من الناس في أحاديثهم وأيمانهم هو الحلف بالطلاق ، فتجد أن الحالف والمحلوف له يعظمان الحلف بالطلاق ويحتقران الحلف بالله وهذا من أقبح العادات المؤدية إلى إحباط العمل . ، ويوشك أن يؤدي بالحالف إلى الحنث في يمينه ويبقى في أخذ ورد ، هل تصح له زوجته أو انه بهذا اليمين قد حرمت عليه ، وهل يبقي شيء في الإسلام عندما يرى تعظيم الطلاق على الحلف بالواحد الخلاق « رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدِ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّك أَنْتَ الوَهَّابُ »[1] .

---

(١) سورة آل عمران : ٨ .

الأولياء

«أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»(١)

أدركنا الناس وهم ـ ما يزالون ـ يعتقدون أن الأولياء صنف من الناس اختصهم الله بالولاية ، واصطفاهم لها من بين خلقه بغير كسب منهم ولا عمل ، وقد يكون هؤلاء من البله والمجانين ، كما يكونون من العصاة والمفسدين ، وأن (القطب) معه طوق خفي يضعه في عنق من يشاءُ ، فإذا هو وليّ ، ومعه نطاق يشد به وسط من يشاءُ ، فإذا هو من الأولياء ، وأن الأولياء يعلمون الغيب ، ويأتون بالخوارق المخالفة للنواميس الكونية ، وينجدون من يستنجد بهم ، ويغيثون من يستغيثهم ، ولو كان بينهم وبينه بُعد المشرقين .

ورأينا من يحكي أنه سقط في بئر ، وأشرف على الغرق فهتف باسم السيد البدوي يستغيث به ، فإذا يده ورجله في

---

(١) سورة يونس : ٦٢ ـ ٦٤ .

المرقاة ، وإذا به ينجو من الهلاك المحتّم ، بفضل إغاثة السيد البدوي له ، ولا يزال يذكر له هذا الفضل ، ويعد له هذه الكرامة !

وسمعنا من أمثال هذه الأقاصيص والأكاذيب ما لا تتسع له أسفار وأسفار ، والناس في عقائدهم هذه مخطئون وعن الحق غافلون . ونحن نتأكد أن البدوي لا يقبل نسبة هذا اليه .

وصدق الله وحده : « وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ . إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ »[1].

---

(١) سورة فاطر : ١٣ ، ١٤ .

من الولي؟

وقد آن أن أقف بك على حقيقة الولي مستدلا بآيات القرآن الكريم ونصوص اللغة العربية الشريفة ، لغة القرآن المبين «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ»(١) .

قال الله تعالى : « اللهُ وَلِيُّ الَّذينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ ، أُولَئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فيها خَالِدُونَ »(٢) .

وقال تعالى: « إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا ، وَاللهُ وَلِيُّهُمَا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ »(٣) .

وقال تعالى : « إِنَّما ذَلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ ، فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »(٤) .

وقال تعالى : « وَما لَكُمْ لاَ تُقاتِلُونَ في سَبيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ :

---

(١) سورة الأنفال : ٤٢ .
(٢) سورة البقرة : ٢٥٧ .
(٣) سورة آل عمران : ١٢٢ .
(٤) سورة آل عمران : ١٧٥ .

رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِن لَدُنْكَ وَلِيًّا واجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصيراً الَّذينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ في سَبيلِ اللهِ ، وَالَّذينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ في سَبيلِ الطَّاغوتِ ، فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كَانَ ضَعيفاً ».(١)

وقال تعالى : «وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً . فَلا تَتَّخِذوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهاجِرُوا في سَبيلِ اللهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذوهُمْ وَاقْتُلوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصيراً »(٢).

وقال تعالى : « وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً »(٣).

وقال تعالى : « الَّذينَ يَتَّخِذونَ الْكافِرينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَميعاً »(٤).

وقال تعالى: « يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذوا الْكَافِرينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنينَ . أَتُريدونَ أَنْ تَجْعَلوا للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً مُبيناً »(٥).

---

(١) سورةالنساء : ٧٥ ، ٧٦ .
(٢) سورة النساء : ٨٩ .
(٣) سورة النساء : ١١٩ .
(٤) سورة النساء : ١٣٩ .
(٥) سورة النساء : ١٤٤ .

وقال تعالى : « يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارَى أَوْلِيَاءَ ، بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ . إِنَّ اللهَ لَا يَهْدى الْقَوْمَ الظَّالِمينَ »(١).

وقال تعالى : « إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذينَ آمَنُوا الَّذينَ يُقيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ »(٢).

وقال تعالى : « يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِياءَ وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »(٣).

وقال تعالى : « وَلَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ، وَلَكِنَّ كَثيراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ »(٤).

وقال تعالى : « قُلْ : أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّمَواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ ، قُلْ : إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكينَ »(٥).

---

(١) سورة المائدة : ٥١ .
(٢) سورة المائدة : ٥٥ .
(٣) سورة المائدة : ٥٧ .
(٤) سورة المائدة : ٨١ .
(٥) سورة الأنعام : ١٤ .

وقال تعالى : « وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ . لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ »(١).

وقال تعالى : « وَذَرِ الَّذينَ اتَّخَذُوا دينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً ، وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا ، وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلا شَفيعٌ »(٢).

وقال تعالى : « وَإِنَّ الشَّياطينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ »(٣).

وقال تعالى : « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَميعاً يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ، وَقالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ : رَبَّنا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنا أَجَلَنا الَّذي أَجَّلْتَ لَنا ، قالَ : النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدينَ فيها إِلَّا ما شاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكيمٌ عَليمٌ »(٤).

وقال تعالى : « اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ قَليلاً مَا تَذَكَّرُونَ »(٥).

---

(١) سورة الأنعام : ٥١ .
(٢) سورة الأنعام : ٧٠ .
(٣) سورة الأنعام : ١٢١ .
(٤) سورة الأنعام : ١٢٨ .
(٥) سورة الأعراف : ٣ .

وقال تعالى : « إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ »(١).

وقال تعالى : « أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ »(٢).

وقال تعالى : « إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ »(٣).

وقال تعالى : « وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ ، وَمَا كَانُوا أَوْلِياءَهُ ، إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »(٤).

وقال تعالى : « إِنَّ الَّذينَ آمَنوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ في سَبيلِ اللهِ ، وَالَّذينَ آوَوْا وَنَصَرُوا ، أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَالَّذينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ، وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ في الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ،

---

(١) سورة الأعراف : ٣٠ .
(٢) سورة الأعراف : ١٥٥ .
(٣) سورة الأعراف : ١٩٦ .
(٤) سورة الأنفال : ٣٤ .

وَاللهُ بما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَالَّذينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ في الْأَرْضِ وَفَسادٌ كَبيرٌ »[1].

وقال تعالى : « يـأَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِـذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »[2].

وقال تعالى : « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ ، يَـأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَيُطيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »[3].

وقال تعالى : « أَلَا إِنَّ أَوْلِياءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »[4].

وقال تعالى : « أُولَئِكَ لَمْ يَكونُوا مُعْجِزينَ في الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِياءَ ، يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ ، مَا كانُوا يَسْتَطيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كانُوا يُبْصِرُونَ »[5].

---

(١) سورة الأنفال : ٧٢ ، ٧٣.
(٢) سورة التوبة : ٢٣ .
(٣) سورة التوبة : ٧١.
(٤) سورة يونس : ٦٢ .
(٥) سورة هود : ٢٠.

وقال تعالى : « أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ ، تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ »(١).

قال الله تعالى: « فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »(٢).

وقال تعالى : « وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُماً ، مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً »(٣).

وقال تعالى : « وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً »(٤).

وقال تعالى : « لَهُ غَيْبُ السَّمَواتِ وَالْأَرْضِ ، أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ، مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ ، وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً »(٥).

---

(١) سورة يوسف : ١٠١ .
(٢) سورة النحل : ٦٣ .
(٣) سورة الإسراء : ٩٧ .
(٤) سورة الإسراء : ١١١ .
(٥) سورة الكهف : ٢٦ .

وقال تعالى : « وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُوني وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ، بِئْسَ للظَّالِمينَ بَدَلاً »(١).

وقال تعالى : « أَفَحَسِبَ الَّذينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي مِنْ دُوني أَوْلِياءَ »(٢).

وقال تعالى : « فَهَبْ لي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا »(٣).

وقال تعالى : « يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا »(٤).

وقال تعالى : « مَثَلُ الَّذينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٥) ».

وقال تعالى : « مَالَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ »(٦).

---

(١) سورة الكهف : ٥٠ .
(٢) سورة الكهف : ١٠٢ .
(٣) سورة مريم : ٥ .
(٤) سورة مريم : ٤٥ .
(٥) سورة العنكبوت : ٤١ .
(٦) سورة السجدة : ٤ .

وقال تعالى : « إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً . خالِدِينَ فيها أَبداً لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً »[1].

وقال تعالى : « قَالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ »[2].

وقال تعالى : « أَلَا للهِ الدِّينُ الخالِصُ ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفونَ »[3].

وقال تعالى : « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ »[4].

وقال تعالى : « يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ »[5].

وقال تعالى : « قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ للهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ »[6]

---

(١) سورة الأحزاب : ٦٤ ، ٦٥ .
(٢) سورة سبأ : ٤١ .
(٣) سورة الزمر : ٣ .
(٤) سورة الشورى : ٦ .
(٥) سورة الممتحنة : ١ .
(٦) سورة الجمعة : ٦ .

النصوص اللغوية

قال الفيروزبادي :

الوَلاء : القرب والدنو ، والمطر بعد المطر . وقد وُليت الأَرض . والوَلِيُّ : الاسم منه والمحب والصديق والنصير .

وقال الراغب الأَصفهاني في غريب القرآن :

والولاءُ والتوالي أن يحصل شيئان فصاعداً حصولا ليس بينهما ما ليس منهما ، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان ومن حيث النسبة ، ومن حيث الدين ، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد . والوَلاية والوِلاية تولي الأَمر ، والوليُّ والمولى يستعملان في ذلك كل واحد منهما يقال في معنى الفاعل أَي الموالِي ، وفي معنى المفعول أَي الموالَيَ ، يقال للمؤمن : هو ولي الله عز وجل ، ولم يَرد مولاه . وقد يقال : الله تعالى ولي المؤمنين ومولاهم ، فمن الأَول قال الله تعالى :

« اللهُ وليُّ الَّذينَ آمَنُوا »[1] ، « إنَّ وَلِيِّيَ اللهُ »[2] ،

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٧ . (٢) سورة الأعراف : ١٩٦ .

« وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ »[1] ، « ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا »[2] ، « هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى »[3].

ومن الثاني . قال الله – عز وجل – : « قُلْ : يَأَيُّها الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ للهِ »[4] ، « فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ »[5] ، « وإلى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِ »[6] ، « وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ »[7].

ونفى الله الولاية بين المؤمنين والكافرين في غير آية ، فقال : « يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارَى أَوْلِياءَ ، بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ »[8] ، « يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »[9] ، « وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ »[10] ، « وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا

---

(١) سورة آل عمران : ٦٨ .
(٢) سورة محمد : ١١ .
(٣) سورة الحج : ٧٨ .
(٤) سورة الجمعة : ٦ .
(٥) سورة التحريم : ٤ .
(٦) سورة يونس : ٣٠ .
(٧) سورة الرعد : ١١ .
(٨) سورة المائدة : ٥١ .
(٩) سورة التوبة : ٢٣.
(١٠) سورة الأعراف : ٣ .

أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ »[1] « يأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ »[2] ، « تَرَى كثيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذينَ كَفَرُوا - إلى قوله - : وَلَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ باللهِ وَالنَّبِيِّ وَما أُنْزِلَ إليهِ ما اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ »[3].

وجعل بين الكافرين والشياطين موالاة في الدنيا ونفى بينهم الموالاة في الآخـــرة . قال تعالى في الموالاة بينهم في الدنيا : « المنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ »[4]. وقوله ، «إنَّا جَعَلْنا الشَّياطينَ أَوْلِياءَ لِلَّذينَ لَا يُؤْمِنُونَ»[5] ، ويقول الله تعالى : « فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ ، إنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعيفاً »[6].

فكما جعل بينهم وبين الشيطان موالاة ، جعل للشيطان في الدنيا عليهم سلطاناً ، فقال : « إنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذينَ يَتَوَلَّوْنَهُ »[7] ، ونفى الموالاة بينهم في الآخرة .

---

(١) سورة الأنفال : ٧٢ .
(٢) سورة الممتحنة : ١ .
(٣) سورة المائدة : ٨٠ ، ٨١ .
(٤) سورة التوبة : ٦٧ .
(٥) سورة الأعراف : ٢٧.
(٦) سورة النساء : ٧٦ .
(٧) سورة النحل : ١٠٠ .

وفي موالاة الكفار بعضهم بعضاً. قال تعالى: «يَوْمَ لَايُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ»[1]، «إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنَ بَعْضَكُمْ بَعْضاً»[2]، وقال تعالى: «الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا، أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ»[3].

---

(١) سورة الدخان: ٤١.
(٢) سورة العنكبوت: ٢٥.
(٣) سورة القصص: ٦٣.

نتيجة البحث

من الآيات القرآنية التي مرت بك، ومن النصوص اللغوية التي جليت عليك، تستطيع أن تفهم فهماً صحيحاً لا مرية فيه أن معنى الوليِّ : هو المحبُّ والصديقُ والنصيرُ .

فوليُّ الله معناه : محبه وناصره. وذلك هو المؤمن الصالح التقي الذي يحب الله ويطيعه ، ويعمل على نصرة دينه ، ويصدق ما عاهد الله عليه ، ويتقرب إليه بصالح العمل .

وفصل الخطاب في ذلك قول الله تعالى : « أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وكانُوا يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »[1].

فتنص هذه الآية البينة الكريمة بكل صراحة ووضوح وبيان على أن أولياء الله هم الذين آمنوا وكانوا يتقون .

---

(١) سورة يونس : ٦٢ – ٦٤ .

إيضاح
تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم

أرسل الله تعالى نبيه محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد ، فاستجاب له فريق من الناس آمن به وصدق برسالته ، وعزره ونصره واتبع النور الذي أُنزل معه ، وسارع إلى توحيد ربه وطاعته ، وامتثال أمره ونهيه ، أولئك هم أولياءُ الله وأنصاره وحزبه ، وأولئك هم المفلحون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

وأعرض عنه فريق آخر : وكذبه وعاداه وتنكر له ، وصدّ عن سبيل الله ، وبغاها عوجاً ، واستمسك بما كان عليه آباؤه وأجداده وأولئك هم أعداءُ الله ، وهم أولياءُ الشيطان وحزبه المخذولون ، الذين لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم .

الولاية كسبية

الولاية : هي الإيمان والتقوى ، وواجب على كل مكلف أن يكون مؤمناً ، وواجب على كل مؤمن أن يكون تقيًّا ، فالله يكلف عباده أن يكونوا أولياءه بالإيمان والتقوى ، فمن آمن منهم واتقى فهو الولي وقد كسب ولايته لله حقاً ، ومن لم يؤمن فهو الكافر وهو من أولياء الشيطان الذي أُعدت له الجحيم يصلى سعيرها خالداً فيها أبداً . ومن آمن ولم يتق فهو العاصي الأثيم .

في وسع كل إنسان أن يكون مؤمناً ؛ لأن الله تعالى أقام دلائل وجوده وقدرته ووحدانيته ، وبث آياته في الآفاق وفي الأنفس ، ودعا إلى النظر فيها ، وحض على التفكر في خلق السموات والأرض وما خلق الله من شيء . فإذا فكر الناس في ذلك ونظروا فيه نظر مستبصر متأمل ، قادهم الفكر ، وهداهم النظر إلى الإيمان الصحيح . فحين كلف الله الناس الإيمان لم يكلفهم شططاً ، ولم يرهقهم من أمرهم عسراً . إنما كلفهم ما يدخل في نطاق إمكانهم ، وما يطيقه وسعهم ،

وما تحتمله طاقتهم . قال تعالى : « لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا »[1] .

وأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، وأرسل من قبله رسلا إلى قومهم ؛ فجاءوهم بالبينات لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فضلا من الله ونعمة منه ، والله عليم حكيم .

والقيام بالتكاليف الشرعية الذي يحقق التقوى في إمكانية كل مكلف ؛ إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

إذاً الولاية كسبية ما دامت عناصرها كسبية ، وفي وسع كل مكلف أن يكون وليًّا لله تعالى ، بل هذا واجبه المفروض عليه ، فمن لم يقم به فهو كافر إن لم يقم ركن الإيمان ، وفاسق آثم إن آمن ولم يقم ركن التقوى باداء الشرائع .

فالمسلمون الصالحون المتمسكون بدينهم ، الحافظون لحدود ربهم ، أولياءُ الله من لدن أبي بكر الصديق رأس الأولياء في هذه الأمّة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وفي وسعك وفي وسعي ، وفي وسع المسلمين جميعاً أن يكونوا أولياء الله ، بل هذا واجبنا جميعاً نسأل عنه يوم

---

(١) الطلاق : ٧ .

تجزى كل نفس بما كسبت .

فعلينا جميعاً أن نتوب إلى الله مما اقترفنا من آثام ، وما أتينا من أوزار ، لنكون من أولياء الله ، فالتوبة تجبُّ ما قبلها ، وترد الإنسان طاهراً كيوم ولدته أُمُّه .

فطوبى لمن أقبل على ربه ، ومحا بالتوبة النصوح سابق سيئاته وأوزاره ، وأصبح من أولياء الله الصالحين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

وويل لمن استفزه الشيطان فأطاعه ، وتورّط في آثامه وأصرّ عليها ، ولم يطرق باب المتاب ، ولم يقرع سن الندم ليكفر الله عنه أسوأ الذي عمل ويجزيه من فضله .

* * * *

ولا يقذفن في روعك أن الولاية كالنبوة يصطفي لها الله فريقاً من الناس يصطنعهم لنفسه ، فتقعد همتك عن العمل لكسبها ، فإن هذا خطأٌ شنيع ، إذ لو كان الأمر كما تظن ما كلفك الله الإيمان والتقوى عنصرا الولاية وركناها .

فمن آمن واتقى وأصلح فهو الولي وطوبى له ، ومن لم يفعل فأولئك هم الخاسرون ، ولهم الويل مما يفعلون ، ولا تأْس على القوم الهالكين .

هل يقترف الولي معصية ؟

العصمة من خواص الأنبياء الذين اصطفاهم الله لتبليغ رسالته إلى خلقه ، واصطنعهم لنفسه ، واختارهم لتكون فيهم للناس أسوة حسنة ، وليجعلهم لعباده المثل الأعلى ، فلا تقع منهم المعاصي . ولا يلمون بالآثام والخطايا ؛ لأن ذلك ثلمة في أخلاقهم ، ونقص في خلالهم ، ومغمز يغتمزه أعداؤهم فيهم وذريعة إلى النيل منهم ، والطعن في صدق رسالتهم .

وإذا كان الأنبياءُ لم يسلموا من ألسنة السوء مع كمالهم وسمو أنفسهم ، وقدس أخلاقهم ونبل سجاياهم ؛ فكيف إذا تلوثوا بمخالفة وألموا بخطيئة ، وتورّطوا في معصية الله الذي أرسلهم ليدعوا الناس إلى طاعته ؟ .

لا جرم أن يتولى الله أنبياءه بالعصمة ، ويحوطهم بالكرامة حتى يرغم أعداءهم على أن يضمروا لهم كل إكبار وإجلال .

وحسبك ما رواه البخاري من شهادة أبي سفيان قبل إسلامه للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالصدق بين يدي هرقل ، حين سأله : « هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن

يقول ما قال ؟) وما قال هرقل من أنه (لم يكن ليـــذر الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى) .

أما الأولياءُ: فليسوا بهذه المثابة وما هم بمعصومين ، بل يجوز أن تقع منهم المعصية ، سواءٌ عليهم أكانت صغيرة أم كانت كبيرة ، ولا تخرجهم من ولايتهم وحبهم لله تعالى ما داموا لا يصرون عليها ، وما داموا يتطهرون من أوضارها بالندم والتوبة والإنابة . قال الله تعالى : « وَسارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمَواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرّاءِ وَالضَّرّاءِ وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَموا أَنْفُسَهُمْ ، ذَكَروا اللهَ فاسْتَغْفَرُوا لِذُنوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنوبَ إِلَّا اللهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى ما فَعَلوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أُولَئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ »[1].

---

(١) سورة آل عمران : ١٣٣ – ١٣٦ .

في هذه الآيات البينات ، والحجج الدامغات ، يدعو الله عباده إلى أن يسارعوا إلى مغفرته ورحمته وجنته الواسعة التي أعدّها للمتقين . وقد وصف المتقين بأنهم ينفقون في السرّاء والضرّاء ، ويكظمون الغيظ ، ويعفون عن الناس ، ثم بيّن – تعالى – من أحوالهم أنهم إذا فعلوا فاحشة كبيرة أو ظلموا أنفسهم بصغيرة ، ذكروا الله تعالى وذكروا عقابه ووعيده ونهيه ، وحقه العظيم . وجلاله الموجب لخشيته والحياء منه ، فاستغفروا لذنوبهم ، وتابوا منها نادمين ، لعلمهم أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وأنه لا مفزع للمذنبين إلا فضله وكرمه . وفي هذا تطييب لنفوس العباد ، وتنشيط للتوبة ، والحث عليها ، وردع عن اليأس والقنوط من رحمة الله ، وبيان أن الذنوب وإن جَلَّت فإن عفوه – تعالى – أعظم وكرمُه أجلّ ، متى تقرّب العبد إليه بالتوبة . ثم بيّن تعالى أن جزاء هؤلاء مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها .

يتضح من هذا أن اقترافهم للآثام لا يخرجهم من ولاية الله ، واستحقاقهم دار الكرامة إذا تابوا منها ، ولم يصروا عليها.

وقال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ »[1]، وفي هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى أن المتقين على الرغم من تقواهم لا ينجون من وسوسة الشيطان وكيده ، لأنه بصير بعيوبهم ، يراهم هو وقبيله من حيث لا يرونهم ، بيد أنهم إذا مسهم طائف منه تذكروا الله وما أمر به ، وما نهى عنه ، فأبصروا السداد ، ودفعوا ما وسوس به الشيطان إليهم ، ولم يتبعوه أنفسهم ، وبذلك يعودون إلى حظيرة التقوى ، وينتظمون في صفوف الأولياء .

فلا يقذفن الشيطان في روعك أنك إن اقترفت إثماً من الآثام ، فقد انقطعت الأواصر بينك وبين الولاية ، وانبتت الوشائج بينك وبينها ، فيغتنم الشيطان منك هذه الفرصة ، وينتهز هذه الغفلة ، ويتخذها وسيلة إلى أن يطوِّع لك التمادي في الإثم ، والانغماس في الغواية ، والإمعان في سبيل الضلالة ويحول بينك وبين التوبة ، ويصدق عليك ظنه .

بل جدير بك إن ألممت بمعصية أن تقرع بالتوبة والإنابة

---

(١) سورة الأعراف : ٢٠١ .

باب القبول ، وأن تستغفر الله مما فعلت . فقـد قال تعالى : « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى »[1].

وروي عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له) .

---

(١) سورة طه : ٨٢ .

ما غفل الناس عنه

روى البخاري في صحيحه قال : حدثنا إسماعيل قال : حدثني مالك بن أنس عن عمه أبي سهل بن مالك عن أبيه أنه سمع طلحة بن عبيد الله يقول : (جاء رجل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أهل نجد ، ثائر الرأس ، نسمع دويَّ صوته ولا نفقه ما يقول ، حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خمس صلوات كتبهن الله في اليوم والليلة ، فقال : هل عليَّ غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تطوع . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وصيام رمضان ، قال : هل عليَّ غيره ؟ قال : لا ، إلا أن تطوع . قال : وذكر له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الزكاة ، قال : هل عليَّ غيرها ؟ قال : لا ، إلا تطوَّع . قال : فأدبر الرجل ، وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفلح إن صدق) .

كم في هذا الحديث من فقه غفل عنه الناس ! ألا ترى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضمن الفوز والفلاح

لرجل أقسم بالله لا يزيد على الفرائض ولا ينقص ، إن كان صادقاً فيما يقول ، وما الفوز والفلاح إلا استحقاق الخلود في دار المقامة ، وما أعد الله دار المقامة إلا للمتقين ، والمتقون هم أولياؤه بشهادة القرآن الكريم .

إذاً لقد شهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالولاية لهذا الأعرابي الثائر الرأس إن صدق ما عاهد الله عليه .

فلو أنك اقتصرت على أداء الفرائض حق أدائها ، وعنيت بها حق عنايتها ، ورفعتها إلى ربك كاملة غير منقوصة فأنت الولي حقاً ، ما دمت مجتنباً لكبائر الإثم والفواحش إلا اللمم الذي يكفره الاستغفار .

ولعلك على ذكر من أن أداء الفرائض خير ما يُزْدَلف بها إلى الله ، فقد جاء في الحديث القدسي : (وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ من أداء ما افترضته عليه) .

ولا يهجس في خاطرك أني أحاول بهذا أن أصرفك عن نوافل الخير التي تقربك إلى الله تعالى وتزلف لك الجنة إنما أردت أن أبين لك سماحة الإسلام وسهولته ويسره ، وأن

الولاية مكفولة للمتقين حتى الذين يقتصرون على أداء الفرائض كاملة لا يزيدون عليها ولا ينقصون .

ولست أجحد أن نوافل الخير من خير القرَب التي تجعل العبد من أحباء الله ، يرفع درجته في الفردوس ، وتجعله من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً .

روى البخاري في صحيحه قال : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله قال : حدثني مالك بن أنس عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم ، كما يتراءون الكوكب الدريّ الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم . قال : بلى والذى نفسي بيـــده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين) .

لا جرم أن هؤلاء الرجال ما بلغوا هذه الدرجة إلا بصدق

إيمانهم وقوة يقينهم وطاعتهم لربهم ، وتقرّبهم إليه بنوافل الخير ، وحبهم لنبيهم – صلى الله عليه وسلم – جعلنا الله منهم ورزقنا سلوك سبل الخير التي كانوا يسلكون .

(فائـــدة)

من تعليق المحقق :

يقول الله – جل ذكره – : « وَإِنْ تَتَوَلَّوا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ »[1] ، إنك يا أخي المسلم لو تـأملت هذه الآية الكريمة لعلمت أن الله أعد رجالاً لطاعته وعبادته وللإخلاص له . أخّر ايجـادهم عن زمن النبوة ولكنهم بلغوا القمّة في المكانة عند الله لحسن عقيدتهم ، وسلوكهم الصالح وإقبالهم على أداء أوامر الله واجتناب نواهيه فقربهم وأدناهم ، وينطبق عليهم قول القائل :

تشاغـــل قوم بدنياهم وقـــوم تخلوا لأُخراهم
أحبوا الوصال فصاموا النهار وفي الليل قامـــوا لمولاهم
فأرضاهم بالرضـــا عنهم وفي جنـــة الخلـــد آواهم

---

(١) سورة محمد : ٣٨ .

الخوارق

شاع في الناس حتى بلغ مبلغ الاعتقاد أن العبد لا يكون وليًّا حتى يأتي بخارقة من خوارق العادات تثبت ولايته. ولست أدري كيف ساغ لهم هذا القول وعلى أي أس أقاموه؟ ولم يأت به قرآن ولا سنة، ولم يقل به أحدٌ من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

اقرأ كتاب الله من فاتحته إلى خاتمته، هل تجد آية تنص على أن العبد لا يستحق اسم الولاية. ولا يكتب في سجل الأولياء إلا إذا أتى بخارقة تشهد له عند الناس بصدق ولايته؟

ارجع إلى كتب السنة الصحيحة وقلِّب صفحاتها، وانظر فيها نظر متثبت متين: هل تجد فيها حديثاً واحداً ينص على أن شرط الولاية أن يأتي صاحبها بخارقة تؤيده، وتثبت ولايته.

الولاية يا قوم إيمان وتقوى، ما لها وللخوارق؟.

قال تعالى: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ»[1].

---

(١) سورة يونس: ٦٢، ٦٣.

الولاية سر بين العبد وربه . الولاية إخلاص لله تعالى وحب له ، واستمساك بدينه ، وطاعة لأمـــره ، فما شأنها والخوارق ؟.

أم يزعمون أنها ادعاءٌ وتحدّ فلا بد من إثبات صحة الدعوى ، وإعجاز المكذبين لها بخارقة ؟ .

لا يا قوم . لا تفتروا على الله الكذب ، ولا تغلوا في دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، فالدين يسر لا عسر فيه ، وسهل لا تعقيد فيه .

دعوا المؤمنين يفرحوا بولايتهم لله وصدق إيمانهم به . وحسن تسليمهم إليه ، ولا تُيَئِّسوهم من روح الله .

إن الله تعالى يدعو المؤمنين جميعاً إلى ولايته ونصرته . قال الله تعالى : « يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كما قالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ لِلحَوارِيينَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ ؟ قال الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ فآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَني إِسْرائيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا الَّذينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ »[1] ، فها أنتم هؤلاء تُدعون لتكونوا من أنصار اللهِ ،

---

(١) سورة الصف : ١٤ .

أي من أوليائه ، فما لكم لا تسارعون إلى الاستجابة لدعوة الله ، والله تعالى يقول : « يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُم »[1]. فكونوا أنصار الله ، وكونوا أولياءه بالإيمان والتقوى ولا تفكروا في الخوارق فليست لكم ولا هي مما تملك أيديكم.

يا حسرة على المسلمين ! يزعم فريق منهم أن من الناس من يملك التصرف في شئون العالم ، ويقضي حاجات من يدعوه من دون الله أو مع الله بالخوارق التي يملكها ، والتي يبديها كلما لاحت له حاجة إلى إبدائها ، ولست أدري متى يثوبون إلى رشدهم ، حتى يردوا الأمر إلى من له الأمر ، لا إله إلا هو وحده لا شريك له إليه يرجع الأمر كله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . سبحانه وتعالى عما يصفون . يا قوم آمنوا بربكم إيماناً صادقاً صحيحاً ، ووحدوه توحيداً خالصاً وأخلصوا له دينكم ودعوا منكر القول وزوره ، ولا تقولوا على الله إلا الحق الذي نطق به الكتاب الكريم وأيدته السنة المطهرة ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون .

---

(١) سورة الأنفال : ٢٤ .

لا يعلم الغيب إلا الله

يزعم فريق من الناس أن الأولياء يعلمون الغيب . وهذا كَذِبٌ صريح وادِّعاء باطل ، فإن الغيب لله « عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً. إِلَّامَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً. لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رسالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيءٍ عَدَداً »(١) .

هذا قول الله ، فقولوا : أتصدقونه أم تكذبونه ؟ فأما إن كنتم تصدقونه فأنتم ملزمون أن تُقلعوا عن قول الزور الذي تقولون ، وتؤمنوا بأن الغيب لله وحده . وأما إن كنتم تكذبونه فليس كلامي موجهاً لكم ، لأنني أخاطب المؤمنين .

يا قوم عصمكم الله من الزلل ، وألهمكم الرشد ومنحكم التوفيق ، ألم تروا كيف يقول ربكم الأعلى لنبيه – صلى الله عليه وسلم – وهو أكرم الخلق عليه وأحبهم إليه : « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنونَ »(٢).

---

(١) سورة الجن : ٢٦ ، ٢٨ . (٢) سورة الأعراف : ١٨٨ .

ففي ذلك إظهار للعبودية والانتفاءُ عما يختص بالربوبية من علم الغيب : أي قل : إنما أنا عبد لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ، ولا دفع ضر إلا ما شاء ربي ؛ ومالك أمري من النفع لي والدفع عني ، ولو كنت أعلم الغيب لكانت حالي على غير ما هي عليه فاستكثرت من الخير ، واستغزرت المنافع ، واجتنبت السوء والمضار حتى لا يمسني منها شيءٌ ، ولكنت في الحروب غالباً دائماً ، وفي التجارات رابحاً دائماً ، وفي التدبير مصيباً دائماً ، ولكن النصر والربح والإصابة قد تخطئني في بعض الأحيان ، فما أنا إلا بشر ليس من شأني علم الغيب .

إذا وقفت عند هذه الآية وقفة منصف ، وتأملتها تأمل باحث عن الحق ، حريص عليه ، موقن بأن قول الله هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، علمت أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، وأنه لا يعلم الغيب الذي تفرد الله بعلمه ، وقد علمه الله تعالى أن يقيم الدليل المقنع للناس ، ويأتيهم بالحجة

الدامغة على أنه لا يعلم الغيب فأمره أن يقول لهم « وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ » .

إذا اقتنعت بهذا البرهان وعلمت علم اليقين أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يعلم الغيب جزمت جزماً لا شك فيه أن من دونه من الأنبياء لا يعلمون الغيب كذلك.

فهذا نوح ـ عليه السلام ـ يقول لقومه فيما حكى اللهِ سبحانه وتعالى عنه: « وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ ، وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ، وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً اللهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ »[1] ، أي أنه يكون ظالماً لو ادعى لنفسه خلة من هذه الخلال التي نفاها عن نفسه ومنها علم الغيب .

والقرآن الكريم حافل بالآيات البينات التي تنفي علم الغيب عن غير الله تعالى ، وتجعله له تعالى خاصة . قال تعالى : « قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ

---

(١) سورة هود : ٣١ .

الْغَيْبَ ، وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ ؟ »[1]

وقال تعالى : « وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ » [2].

وقال تعالى : « وَيَقُولون لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّما الْغَيْبُ لِلّهِ فانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ »[3].

وقال تعالى : « وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » [4].

وقال تعالى : « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ »[5].

---

(١) سورة الأنعام : ٥٠ .
(٢) سورة الأنعام : ٥٩ .
(٣) سورة يونس : ٢٠ .
(٤) سورة هود : ١٢٣ .
(٥) سورة النمل : ٦٥ .

وإذا تدبرت قوله تعالى : « وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقالَ : أَنْبِئُوني بِأَسْماءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ . قَالوا : سُبْحانَكَ لَا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ : يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ . فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَواتِ وَالْأَرْضِ وأَعْلَمُ مَاتُبْدُونَ وما كُنْتُم تكْتُمونَ ».(١)

تبين لك أن الملائكة على سمو مكانتهم وعلو منزلتهم ، لا يعلمون من الغيب إلا ما علمهم الله تعالى .

وإذا تدبرت قوله تعالى في شأن سليمان ـ عليه السلام ـ « فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ . فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ »(٢) .

علمت علم اليقين أن الجن وهم من عالم الغيب لا يعلمون الغيب . إذاً تبين لك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يعلم الغيب ، وأن الأنبياء من قبله لا يعلمون

---

(١) سورة البقرة : ٣١ ـ ٣٣ . (٢) سورة سبأ : ١٤ .

الغيب ، وأن الملائكة لا يعلمون الغيب ، وأن الجن لا يعلمون الغيب . أفتزعم بعد هذا أن الأولياء بعد موتهم أو في حياتهم يعلمون الغيب ؟ .

إن هذا إلا اختلاق .

* * * *

يا عجباً كل العجب ، لم يقف بنا الجهل والغفلة عن نسبة علم الغيب إلى الأولياء ، بل تجاوزناهم إلى العرّافين والمنجمين والدجالين ، حتى كدنا نجعل الغيب أمراً شائعاً بين الناس جميعاً .

ولقد اتخذ الدجالون والمحتالون هذا الضعف فينا ذريعة إلى العبث بقولنا ، والاحتيال لسلب أموالنا . وهذه الصحف تفيض أنهارها كل يوم بحوادث هؤلاء الدجّالين ، وأخبار أولئك المخادعين ، ولكن الناس عن هذا غافلون . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

الكرامة

قال الله تعالى : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ورزقْناهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا »(١) .

صدق الله العظيم ، لقد كرَّم الله الإنسان وفضله على كثير من خلقه ، منحه قامة مستقيمة ، وبشرة بادية ، ولم يجعل فاه إلى الأرض كما جعل أفواه سائر الحيوان ، وحمله في البر على ظهور الإبل والخيل والبغال والحمير ، وفي مركبات تجرها الخيل والبغال والحمير ؛ ثم في مركبات تسير بقوة البخار ، ثم في مركبات تحركها الكهرباء ، ثم في سيارات تتعاون على تحريكها الكهرباءُ والهواءُ . وحمله في البحر على ظهور السفن الشراعية والمواخر البخارية ، وفي بطون الغائصات الحربية ، وحمله في الهواء على المطاود والطائرات التي أعادت عصور المعجزات ومنحه العقل الذي يتحكم به في العناصر وفق نواميس الطبيعة ، ويسخِّر أسرار الكون وقواه بإذن الله ، فاخترع المسرَّة والبرق ، وخاطب بني جنسه من وراء الأبعاد

---

(١) سورة الإسراء : ٧٠ .

السحيقة والبحار الشاسعة، مستعيناً بأسلاك النحاس وأسباب الحديد . ثم ابتدع البرق الأثيري يحمِّل الكلام فيه أجنحة الأثير الخفية . ثم ابتكر المذياع ينقل إليه الخطب والموسيقى والتمثيل والأغاني من أقصى البلدان وهو في مخدعه مستريح مطمئن وادع ساكن ؛ وقد نجح آخر الأمر في نقل صور المشاهدات من الأشخاص والأشياء مع الأصوات والأنغام .

ابتكارات واختراعات ؛ أشبه شيء بالمعجزات .

ذلك إلى رزق من البر والبحر ، فكم أخرج له من الأرض من ثمرات ، وكم متعه بصنوف الطيبات ، وشرّفه بالشرائع والتكاليف ، فأية كرامة أبلغ من هذه الكرامات ؟.

ولكن للكرامة عند الناس معنى آخر . قالوا : إن الكرامة أمر خارق للعادة يظهره الله على يد رجل صالح إكراماً له ـ وكان عليهم أن يضيفوا إلى هذا التعريف « أو امرأة صالحة »

ومع أن هذا التعريف لم يأت في القرآن الكريم ، ولم ينطق به المعصوم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لسنا ننكر إكرام الله للصالحين من عباده وإمائه بما شاء ، ما دمنا نرد الأمر إلى الله وحده .

أليس الله سبحانه وتعالى يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ؟ فهذا إكرام من الله تعالى لهذا الذي دعاه مخلصاً له الدين.

ألم يهيئ الله تعالى لمريم مَن يأتيها برزقها حتى كانت كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً . قال : يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله . إن الله يرزق من يشاءُ بغير حساب .

فهذا إكرام من الله تعالى لهذه العذراء البتول ، التي نذرتها أمها لخدمة الله ، فطابت نفسها بذلك واطمأنت إليه .

روى البخاري بالسند المتصل عن أنس – رضي الله عنه – أن رجلين خرجا من عند النبي – صلى الله عليه وسلم – ومعهما مثل المصباحين يضيئان بين أيديهما ، فلما افترقا صار مع كل منهما واحداً حتى أتى أهله .

لا جرم أن هذين الرجلين الصالحين ، والصحابيين الجليلين ، صدقت نيّاتهما ، وتم إيمانهما ، وقوي يقينهما

فأكرمهما الله تعالى هذا الإكرام . وجعل نور الإيمان الذي يملأُ قلبيهما يضيءُ بين أيديهما في غبش الظلام ، ولا جرم أن الله تعالى أكرم الراوي فجعله يرى هذا النور ليزداد إيماناً مع إيمانه .

وروى البخاري بالسند المتصل عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عشرة رهط سرية عيناً وأمّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري جد عاصم بن عمر بن الخطاب ، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهدأة وهو بين عسفان ومكة ؛ ذكروا لحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان ؛ فنفروا[1] لهم قريباً من مائتي رجل كلهم رام[2] فاقتصوا آثارهم ، حتى وجدوا مأكلهم تمراً تزوّدوا به من المدينة . فقالوا : هذا تمر يثرب ، فاقتصوا آثارهم ، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فدفد[3] وأحاط بهم القوم ، فقالوا لهم : انزلوا واعطونا بأيديكم[4] ولكم العهد والميثاق ولا نقتل منكم أحداً . قال عاصم بن ثابت أمير السرية :

---

(١) خرجوا .
(٢) مُجيد للرمي بالنبل .
(٣) مكان مرتفع .
(٤) سلموا .

أمّا أنا فوالله لا أنزل اليوم في ذمّة كافر ، اللهم أخبر عنا نبيك ، فرموهم بالنبل فقتلوا عاصماً في سبعة[1] ، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق ، منهم خبيب الأنصاري وابنُ دِثنة ، ورجل آخر ، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم ، فقال الرجل الثالث : هذا أوان الغدر ، والله لا أصحبكم ، إن لي في هؤلاء لأسوة «يريد القتلى» فجروه وعالجوه على أن يصحبهم فقتلوه ، وانطلقوا بخبيب وابن دثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر ، فابتاع خبيباً بنو الحرث ابن عامر بن نوفل بن عبد مناف ، وكان خبيب قد قتل الحرث بن عامر يوم بدر ، فلبث خبيب عندهم أسيراً فأخبرني عبد الله بن عياض أن بنت الحرث أخبرته أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحد بها فأعارته (قالت) فأخذ ابناً لي ، وأنا غافلة حين أتاه ، فوجدته مجلسه على فخذه ، والموسى بيده ، ففزعت فزعة عرفها خبيب في وجهي فقال : أتخشين أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل ذلك. والله لقد وجدته يوماً يأكل من قطف عنب في يده ، وإنه لموثق

---

(١) ضمن سبعة .

بالحديد وما بمكة من ثمر ، وكانت تقول : إنه لرزق من الله رزقه خبيباً ، فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه في الحل ، قال لهم خبيب : ذروني أركع ركعتين ، فتركوه فركع ركعتين ، ثم قال : لولا أن تظنوا أن ما بي جزع لطوّلتهما ، اللهم أحصهم عدداً .

ولست أبالي حين أُقتل مسلما
على أي جنب كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله ، وإن يشأْ
يبارك على أوصال شلو ممزع

فقتله ابن الحارث ؛ فكان خبيب هو الذي سن الركعتين لكل مسلم قتل صبراً ، فاستجاب الله لعاصم بن ثابت يوم أُصيب فَأَخْبِرَ النبيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ خبرهم وما أُصيبوا ، وبعث ناس من كفار قريش إلى عاصم حين حدثوا أنه قُتل ليأْتوا بشيءٍ منه يُعرف وكان قد قتل رجلا من عظمائهم يوم بدر ، فبعث على عاصم مثل الظلة من الدبر [1] فحمته

---

(١) جماعة النحل والزنابير .

من رسلهم فلم يقدروا على أن يقطعوا من لحمه شيئاً .اهـ

وهذا الحديث قرة أعين للمؤمنين الذين يعبدون الله وحده ولا يشركون به شيئاً ؛ وقذى في أعين المشركين الذين يفزعون إلى غير الله في أوقات الشدائد والكروب .

ماذا فعل عاصم – رضي الله عنه – حين أحاط به الأعداءُ ؟ أتراه قال : أغثني أدركني يا رسول الله ؟ كما يقول السفهاءُ من الناس ؟ .

أم توجه إلى الله وحده بقلب ملؤه الإيمان والتقوى ، وقال : اللهم أخبر عنا نبيك ؟ لعلمه أن الأمر كله لله ، وأنه لا ينبغي أن يدعى غير الله ، ولا يستعان إلا بالله .

ألم يستجب الله لعاصم – رضي الله عنه – ويخبر عنه نبيه – صلى الله عليه وسلم – ؟ أليست هذه كرامة أكرمه الله بها لصدق إيمانه وقوة يقينه ؟ ألم يبعث الله النحل تحمي جثته من أن يبعث بها الكفار أو يمثلوا بها ؟.

ألم يكرم الله خبيباً وهو أسير مكبل الأغلال ، موثق

بالحديد في مكة ، فبعث إليه بقطف من العنب وليس بمكة يومئذ تمر ؟ .

أليس هذه كرامة أكرمه الله بها ؟ .

اللهم إنا نعتقد أنك تكرم عبادك الصالحين بما تشاءُ من أنواع الكرامات ، ونعتقد مع ذلك أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، فضلا عن أن يملكوا ذلك لغيرهم .

أغواء المضلين

يحسب الناس أن الكرامات من صنع الأولياء، ويبنون على هذه العقيدة الخاطئة الأثيمة أحكاماً خاطئة جائرة، فيظنون أن الأولياء يقومون من قبورهم، ويقضون حاجات سائليهم ويمنحونهم ما يشاءون، ويجلبون لهم الخير الذي يبتغون، ويصرفون عنهم السوء الذي يحذرون.

وهذه أكاذيب روّجها دعاة السوء، وسماسرة الضلال، من سدنة القبور الذين يروّجون أمثال هذه الأباطيل، ويذيعون أشباه هذه الأكاذيب حتى يكثر عباد الصنم الذي يخدمون، وتكثر بكثرتهم النذور والقرابين التي يقرّبون، فتمتلئ جيوبهم وخزائنهم بالمال الذي يقدمه لهم السفهاء والبله والمفتونون الذين لا يفرّقون بين الخالق والمخلوق، والرازق والمرزوق، ويطلبون من الموتى الفانين ما لا يطلبون من الحي الباقي رب العالمين.

العجب لهم ينسبون إلى الموتى القدرة على الامور التي لا يقدر عليها إلا الله القادر على كل شيء، على

حين ترى الأحياء أنفسَهم لا يقدرون عليها لأنها ليست مما أُتيح للبشر ، ولا دخل في طوق إمكانهم .

ألم يعلموا أن المعجزات بذاتها ليست من صنع الأنبياء ولا من عملهم ولا مما تناله قدرتهم ، ما لم يؤيدهم الله تعالى بها .

وهأنذا أورد عليك من الآيات الكريمة البينة ما يقنعك بصحة ما قلت ؛ إن كنت من الذين يردون ما تنازعوا فيه من شيء إلى الله ورسوله .

قال تعالى : « وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ : إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ »(١)

وقال تعالى : « قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ »(٢).

وقال تعالى : « وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها قُلْ : إِنَّما الآياتُ عِنْدَ اللهِ ، وَما يُشْعِرُكُمْ

---

(١) سورة الأنعام : ٣٧ . (٢) سورة الأنعام : ٥٨ .

أَنَّها إِذَا جاءتْ لَا يُؤْمِنُونَ »[1].

وقال تعالى : « قُلْ : إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ، ما عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفاصِلينَ »[2].

وقال تعالى : « وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيةٌ مِنْ رَبِّهِ ، فَقُلْ : إِنَّما الْغَيْبُ للهِ ، فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ »[3]

وقال تعالى : « فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ ما يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَو جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ وَكِيلٌ »[4].

وقال تعالى : « وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلوا مِنْ بابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ، وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ »[5].

وقال تعالى : « وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ »[6].

---

(١) سورة الأنعام : ١٠٩ .
(٢) سورة الأنعام : ٥٧ .
(٣) سورة يونس : ٢٠ .
(٤) سورة هود : ١٢ .
(٥) سورة يوسف : ٦٧ .
(٦) سورة غافر : ٧٨ .

وقال تعالى : « وَيَقُولُ الَّذينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيةٌ مِنْ رَبِّهِ . إنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ »(١) .

وقال تعالى : « قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إنْ نَحْنُ إلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَما كانَ لَنا أَنْ نأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إلَّا بإذْنِ اللهِ »(٢) .

وقال تعالى : « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خلالها تَفْجيراً ، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً ، أَوْ تَأْتيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبيلًا ، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَ في السَّمَاءِ ، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ . قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي ، هَلْ كُنْتُ إلَّا بَشَراً رَسُولاً »(٣) .

وقال تعالى : « وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ : إنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللهِ وَإنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبينٌ »(٤) .

---

(١) سورة الرعد : ٧ .
(٢) سورة إبراهيم : ١١ .
(٣) سورة الإسراء : ٩٠ ــ ٩٣ .
(٤) سورة العنكبوت : ٥٠ .

وأظن أن هذه الآيات البينات كافية كل الكفاية لإقناع كل من يجادل في أن المعجزات من عمل الله تعالى وليست من صنع الأنبياء .

ألم تر إلى نبي الله موسى - عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة وأتم السلام - كيف أوجس في نفسه خيفة وولى مدبراً ولم يعقب حين أمره الله أن يُلقي العصا فألقاها فإذا هي حيّةٌ تسعى ؟.

أتراه يخاف مما صنعت يداه ، ويفزع من شيء عمله بنفسه ؟.

لو أن هذه المعجزة من عمل موسى ما اعتراه من الفزع ، وللبث في مكانه رابط الجأش ، مطمئن القلب .

وعسى أن تكون الآن قد اطمأنت نفسك إلى أن المعجزة والكرامة من صنع الله ، وليس للأنبياء ولا للأولياء فيهما من أثر .

أين هذا مما يهذي به بعض المسلمين في هذه الأيام ، حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات أصبحت من

ضروب الصناعات ، يتنافس فيها الصالحون ، ويتبارى فيها الأولياءُ ، وهي طوع إرادتهم لا تعسر على هممهم ولا تشق عليهم ، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون .

فضل الله على المتقين

إن الله إذا أحب عبداً قرّبه وأدناه وحبب إليه طاعته وكره إليه المعاصي ونفث في قلبه كل قناعة وطمأنينة ، وسخر له قلوب عباده بالمحبة وقنعه برزقه له ، ولم يفرح الفرح المفرط بما أُوتي في الدنيا ولا يحزن لما فات عليه ، بل يفرح بما يقدم من عمل صالح ويحزن إذا فاتته عبادة كصلاة الجماعة فتجده يحزن لفوات صلاة الجماعة لما يعلم ما فيها من الخير .

وهكذا يرعى ربك عباده الصالحين فضلا منه وليس ذلك من قوتهم ولا من إرادتهم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ والله ذو الفضل العظيم .

قالوا : لم تظهر الخوارق في عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن قوة النبوة كانت غالبة قاهرة ، فلا يتسنى لقوة روحية أخرى أن تظهر بجانبها ، فلما احتجب نور النبوة ، حين لحق ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالرفيق الأعلى ، فاض الإشراق على بعض النفوس فبدأت الخوارق في الظهور ، ثم كلما بَعُدَ العهد برسول الله كثرت الخوارق .

وأرى أن هذه فرية ما فيها مرية : فأين سنة الله التي لن تجد لها تبديلا ولا تحويلا ؟ .

ليس الأمر كما زعموا ، وإنما هو الإيمان بدأ يعتريه الضعف والتحلل بعد خير القرون . وبدأ الخداع والتمويه والاحتيال على البسطاء . فلم تكثر الخوارق وإنما كثرت الترهات والأباطيل .

والناقد البصير قسطاس نفسه ، قال تعالى : « لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ »[1].

---

(١) سورة الأنفال : ٣٧ .

شرك وشرك

أعرض عليك لونين من الشرك لتحكم بينهما بالحق ، والظنُّ بك لزوم الإنصاف ومجانبة الاعتساف.

أما أولهما : فشرك فريق من الناس معدودين من أهل التوحيد ، إذا أصابهم مكروه أو مسّهم ضر أو ضاقت عليهم حلقات الكرب ، هتفوا بأسماءِ معبوديهم من سكان القبور من الأولياءِ والصالحين ، ولم يخطر لهم خالقهم ببال ، كأن هذه الأمور لا تحيط بها قدرته ، وكأن هؤلاءِ الذين يدعون أبرّ بهم وأرحم من الله البر الرحيم . ولعلك صادفت كثيراً من هذا الفريق ؛ ولعل بين جيرانك وأولي قُرباك من ينتظم في سمطهم ، ولست أُريد أن أخدعك عن نفسك ، فكثير من المسلمين من هذا الفريق ، ترى أحدهم إذا نزلت به كربة أو ألمّ به مكروه ، غفل عن ذكر ربه الغفلة كلها ، وسارع إلى هؤلاءِ المقبورين يسألهم كشف الضـــر ، ودفع المكروه ، كأنهم يعلمون الغيب ، وكأنهم يرون ذله وضراعته وكأنهم قادرون على إغاثته وإنقاذه ودفع الضر عنه ، وما هم

من هذا كله في شيء . فلا يعلم الغيب إلا الله ، ولا يجيب المضطر إذا دعاه ، ولا يكشف السوء إلا الله .

أما ثانيهما : فشرك فريق آخر من الناس يدعون معبوديهم في الرخاء ، لا يعبدونهم لأنهم يرونهم أهلا للعبادة ، ولكن لأنهم يزعمون أنهم يقرّبونهم إلى الله زلفى وأنهم شفعاؤهم عند الله . حتى إذا جد الجد ونزل الكرب وأحاط بهم المكروه ، غفلوا عن ذكرهم ونسوا دعاءهم وأعرضوا عنهم ، ودعوا الله مخلصين له الدين .

أولئك هم مشركو العرب الذين توعدهم الله بالعذاب الأليم ، والخلود في غمرات الجحيم .

يشهد لهذا قول الله تعالى : « وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسانُ كَفُوراً »[1] .

وقوله تعالى : « هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا

---

(١) سورة الإسراء : ٦٧ .

جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ »[1] .

وقوله تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ »[2] .

وقوله تعالى : « قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً : لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ، قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ »[3] .

يا قوم : ألهمكم الله الرشد ، ما لكم لا ترجعون إلى كتاب ربكم لتتدبروا آياته ، ولتعتبروا بعظاته ، ولتهتدوا بهداه ؟ .

---

(١) سورة يونس : ٢٢ ، ٢٣ .
(٢) سورة الأنعام : ٤٠ ، ٤١ .
(٣) سورة الأنعام : ٦٣ ، ٦٤ .

ما قص عليكم أحوال الجاهلية إلا لتعتبروا بها ، وتنتفعوا بقصصها ، وتربئوا بأنفسكم عن التلوث بمثل حمأتها .

أفيليق بكم أن تنحدروا إلى درك أسفل من دركهم ، وتتورطوا في شرك شرّ من شركهم ، وأنتم تدّعون الإسلام ، وتنسبون إلى ملة خير الأنام ؟ .

هل يملك الأولياء القضاء ؟

سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك، خلقت الخلق بقدرتك، وكتبت الآجال والأرزاق بحكمتك، قلت وقولك الحق: « وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »(١).

وقلت، والحق ما قلت: « مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »(٢).

وقلت، ولك الكبرياءُ في السموات والأرض: « قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ »(٣).

وقلت، والأمر كله لك: « أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ »(٤).

---

(١) سورة يونس: ١٠٧.
(٢) سورة فاطر: ٢.
(٣) سورة آل عمران: ١٥٤.
(٤) سورة النساء: ٧٨.

وقلت ، وأنت القاهر فوق عبادك : « وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ »(١).

وقلت ، وأنت الحكيم الخبير : « إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ »(٢).

وقلت ، وأنت القائم على كل نفس بما كسبت : « قُلْ مَنْ ذَا الَّذي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أو أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً »(٣).

وقال رسولك الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى: (اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد) .

يا قوم ، عفا الله عنكم ، أترون بعد ما قدمت لكم من آيات الكتاب العزيز ، وكلام الرسول الأمين ، أن أحداً

---

(١) سورة الأنعام : ١٧ .
(٢) سورة آل عمران : ١٦٠ .
(٣) سورة الأحزاب : ١٧ .

يستطيع أن يرد عنكم قضاء الله ، أو يغيّر إرادته ؟ إذاً لانقلب علم الله جهلا ، وقدرته عجزاً ، حاش لله ، بل يحكم لا معقب لِحُكْمِه ، وما لهم من دونه من وال .

هذا عمر بن الخطاب ثاني الأولياء في هذه الأمّة ، وثاني الخلفاءُ الراشدين ، الذي جاهد في الله حق جهاده ، ورفع علم الإسلام خفّاقاً على كثير من الدول والأقطار ، ألم يأتكم نبأ الفاجعة الأليمة التي أصابت المسلمين فيه ؟ ألم تعلموا أن عبداً مجوسياً اعتدى عليه وهو قائم ينظم صفوف المسلمين في صلاة الصبح ؟ فهل استطاع أن يرد القضاء عن نفسه ؟ وهل أغنت عنه ولايته من قدر الله من شيء ؟ وهل علم شيئاً من الغيب ليحذر من عدوه ؟ .

وهذا عثمان بن عفان ، ثالث الخلفاءُ الراشدين ، وثالث الأولياء في هذه الأمّة ؛ الذي جهّز جيش العسرة من حُرِّ ماله ، واشترى بئر رومة وجعلها للمسلمين . دلوه فيها كدلائهم ، وتصدّق على فقراء المسلمين بتجارة أُعطي فيها خمسة أمثال ثمنها ، ماذا كان مصيره ؟ ألم يقتله الغوغاءُ والمصحف بين يديه ، وهو يتلو كتاب الله ؟ فهل ردت عنه ولايتُه قضاء

الله وقدره ، وهل أغنى عن نفسه من قدر الله شيئاً ؟ .

وعلي بن أبي طالب بن عم رسول الله ، وزوج البضعة المباركة ، ورابع الخلفاء الراشدين ، ورابع أولياءُ الله في هذه الأمّه ، ألم يقتله ابن ملجم ، فهل أغنت عنه ولايته أم هل ردت عنه قضاءُ الله ؟ ، وابنه الحسين : ألم تعبث به سيوف أعدائه ، وأخته السيدة زينب – رضي الله عنها – على كثب منه ، فهل أغنى عن نفسه شيئاً ، وهل أغنت عنه أخته شيئاً ، وهل استطاعا أن يردا قضاءِ الله أو يدفعا قدره ؟.

* * * *

يا قوم لم تسألون الأولياءِ ما لا يملكون ، ولم تلتمسون عندهم ما ليسوا عليه بقادرين ؟ .

اسألوا الله وحده ، اسألوه من فضله يؤتكم ما سبقت به مقاديره ويثبكم بدعائكم ، ويوفّكم أجوركم يوم القيامة فإن لم تناولوا ما تحبون رفع عنكم ما تكرهون ، أن نلتم المثوبة والأجر العظيم من الله القادر رب العالمين ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون .

شدّ الرحال

هل تشد الرحال إلى قبور الأولياء

قبل أن أجيبك عن هذا السؤال أريد أن نتفق على المعنى اللغوي لشد الرحال ، حتى إذا اتفقنا قدمت بين يدي الإجابة مقدمة أخرى تتبين منها أصل القرَب والعبادات ، حتى يمكن أن أتناول الإجابة وأنا واثق أنك ستفهم ما أقول وأنك ستوافقني عليه ، وأكبر الرجاء أنك ستكون عند حسن ظني بعقلك وفهمك ، وإخلاصك للحق ، وحرصك على الوصول إليه .

- ١ -

الرحال : جمع رحل ، وهو مركب البعير الذي يركب عليه كالسرج للفرس . والشد : العقد القوي . يقال : شددت الشيء أي قوّيت عقده . فشد الرحل : وضعه على البعير وتثبيته وإحكام عقده ، وإنما يكون ذلك عند إرادة الظعن والسفر .

هذه أصله . ثم أصبح يدل على السفر مطلقاً ، سواءٌ

أكان على ظهور الإبل أو الخيل أو البغال أو الحمير ، أم على السفن الشراعية أو البخارية ، أم في الترام ، أم في مركبات السكك الحدية ، أم في السيارات ، أم في الطائرات . كل هذا يمكن أن يعبر عنه لغة بشد الرحال كما يعبر بحط الرحال وإلقاء الرحال عند الإقامة (انظر أساس البلاغة) .

— ٢ —

ليست العبادات والقُرَب التي يتقرب بها إلى الله متروكة لرغبات العباد وأهوائهم ، ولكن الله سبحانه وتعالى أنزل للناس في كتابه الكريم أنواع العبادات التي يتقربون بها إليه . والرسول الأمين بيّن للناس ما نزل إليهم ، حتى لا يعبدوا الله إلا بما شرع من الدين ، ولا يتقربوا إليه إلا بما أذن به . وقد قال — صلى الله عليه وسلم — : « ما تركت شيئاً يقربكم إلى الجنة ويباعدكم عن النار إلا أمرتكم به ، وما تركت شيئاً يقربكم إلى النار ويبعدكم عن الجنة إلا نهيتكم عنه) ، وبيّن سبحانه وتعالى أن الهدى هداه ، وعاب الذين يتبعون أهواءهم في عبادته فقال :

« أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ ، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ، فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ »[1].

- ٣ -

لعلك الآن وعيت ما قدمت لك وأحسنت الإقبال عليه والفهم له . وهأنذا أورد عليك حكم الله ورسوله في هذا الأمر .

وروى البخاري في صحيحه قال : حدثنا شعبة عن عبد الملك قال : سمعت قزعة مولى زياد قال : سمعت أبا سعيد الخدري يحدث بأربع عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فأعجبتني وآنقتني . قال : (لا تسافر المرأة يومين إلا ومعها زوجها أو ذو محرم . ولا صوم في يومين : الفطر والأضحى ، ولا صلاة بعد صلاتين : بعد الصبح حتى تطلع الشمس ، وبعد العصر حتي تغرب الشمس . ولا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصي ...).

---

(١) سورة الجاثية : ٢٣ .

وقال مسلم في صحيحه : حدثنا قتيبة بن سعيد وعثمان ابن أبي شيبة جميعاً عن جرير. قال قتيبة : حدثنا جرير عن عبد الملك- وهو ابن عمير - عن قزعة عن أبي سعيد ، قال : سمعت منه حديثاً فأعجبني . فقلت له : أنت سمعت هذا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ قال : أفأقول على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما لم أسمع . قال : سمعته يقول : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى) ، وسمعته يقول : (لا تسافر المرأة يومين من الدهر إلا ومعها ذو محرم منها أو زوجها) .

وقال الترمذي في جامعه : حدثنا ابن أبي عمر عن سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن قزعة عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصي) قال : هذا حديث حسن صحيح اهـ .

- ٤ -

لعلك الآن بعد إيراد هذا الحديث الصحيح بطـرقه المختلفة عن أئمة الحديث الثقات أيقنت أنه لا يجوز أن تشد الرحال إلى مكان لتعظيمه أو للتعبد والتقرب إلى الله أو للصلاة فيه ؛ إلا إلى هذه المساجد الثلاثة التي ذكرها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهي مسجده الشريف بالمدينة المنورة ، والمسجد الحرام ، أول بيت وضع للناس ، والمسجد الأقصي ، مسرى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأما ما عداها من المساجد أو القبور أو الأماكن مهما تكن قيمتها في رأي الناس ، فلا يجوز لمسلم أن يشد إليها رحاله بنية العبادة والتقرّب .

وعسى أن تكون قد ألقيت بالك إلى رواية البخاري ، التي جمعت المحظورات الأربع في نسق واحد : سفر المرأة يومين بغير محرم ، وصوم يومي العيد ، والصلاة بعد الصبح والعصر ، وشد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة . فقد نهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن هذه الأربع . والله

سبحانه وتعالى يقول : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوه ، وَمَا نهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ »[1].

لم ينهك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن شد الرحال للتجارة أو طلب العلم أو الجهاد أو صلة الرحم أو قضاء المصالح ، ولكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ نهاك أن تشد الرحال بنية التقرّب إلى الله بزيارة شيء من الأمكنة غير المساجد الثلاثة .

وعلى ذلك لا يجوز لك شرعاً أن تسافر إلى طنطا ونيتك أن تتقرب إلى الله بزيارة قبر البدوي ، ولا يجوز لك السفر إلى القاهرة ونيتك أن تتقرب إلى الله بزيارة قبر من القبور المنسوبة إلى الأولياء والصالحين وأهل البيت ، عملا بالحديث الشريف .

ـ ٥ ـ

ذلك هو الحكم الشرعي الذي يمكن فهمه من حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهبوا النهي للكراهة

---

(١) سورة الحشر : ٧ .

التنزيهية فقط ، فما تقربكم إلى الله تعالى بالمكروه ، وكيف ترجون ثواباً على فعل ما نهيتم عنه ؟.

تلك حدود الله فهل وقف المسلمون عندها ؟ .

الجواب عند هؤلاء الذين ينادون أصحاب القبور من مكان بعيد ، وينذرون لهم النذور ، ويشدون الرحال إلى قبورهم ، يتقربون بزيارتها إلى الله أو إلى الشيطان ، لأنهم لولا عقيدتهم الخاطئة في قدرة هؤلاء على قضاء حاجاتهم واستجابة دعائهم ، وإنقاذهم من الكرب ، ما نذروا لهم ، ولا شدوا الرحال إليهم ، ولا أراقوا عندهم دماء النِّعَم ، ولو أنهم قالـوا غير ذلك لكانوا من الذين يغالطون الحقائق أنفسهم ، ويخادعون الله والذين آمنوا .

لمن المواكب تزجى كل عام ؟ .

لمن تسير الظعائن في الأحداج ؟ .

لمن تدق الطبول ، وتعزف المزامير ؟ .

لمن تساق الكباش والجداء والعجول ؟ .

لمن تشد الرحال وترحل الجمال ؟ .

أليس المسلمون يعملون كل هذا لأصحاب القبور ، استجلاباً لرضاهم ودفعاً لأذاهم ؟ .

تعتقد المرأة ويصدقها الرجل ، أنها إن لم توف بنذرها للشيخ قتل ابنها الذي تزعم أنه منحها إياه إجابة لنذرها ، حين قالت : لئن حملت وجاءني ولد لأنذرنه لك ، ولأحلقن رأسه في ضريحك ، ولأذهبن للوفاء بنذري في موكب عظيم أدعو له أولي القربي والمعارف والجيران . وما هي إلا أن يجمع الرجل حاصل زرعه حتى ترغمه على أن يجيبها إلى ما تريد ، وإلا هلك الولد هلاكاً لا حياة له من بعده .

يا قوم ، لا تكتموا الحقائق .

ألستم ترون هذه المواكب في كل عام في موسم خاص من السنة ؟ ، ألم تروا ولم تسمعوا بازدحام الزوار في القاهرة وطنطا ودسوق وإخميم وسوهاج وقنا وغيرها من البلاد والقرى ؟ .

ماذا أبقيتم من مواسم الجاهلية ، وماذا تركتم من أعمال عباد الأوثان ؟ .

يا أُمّة محمد ، يا أُمة التوحيد.

يا من قال الله تعالى فيكم : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ »[1] .

أفمن الإيمان بالله أن تخافوا غيره ؟.

أفمن الإيمان بالله أن تنذروا لأصحاب القبور ؟.

أفمن الإيمان بالله أن تخافوهم على أولادكم ؟.

أفمن الإيمان بالله أن تحسبوا أن الموتى يستطيعون أن ينالوكم أو ينالوا أبناءكم بأذى ؟.

« أَتَخْشَوْنَهُمْ ؟فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »[2]

« أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ، وَيُخَوِّفُونَكَ بِالذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ، وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ، أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ؟ »[3].

---

(١) سورة آل عمران : ١١٠ . (٢) سورة التوبة : ١٣ .

(٣) سورة الزمر : ٣٧ .

وماذا فوق تلك القبور ؟ .

ألم تر إلى التوابيت الجاثمة فوقها ؟ .

ألم تر إلى الثياب تستجار لهذه التوابيت وتخلع عليها ؟.

ألم تر إلى تلك العمائم العجزاءُ فوق رءُوسها ؟ ، ألم تر إلى النقب والبراقع على وجوه ما وضع على قبور النساء منها ؟ ، ألم تر إلى المناديل في أيديها ؟ ، ألم تر إلى الحلي في أركانها ؟ ، ألم تر إلى المقاصير تحدق بها ؟ .

ألم تر إلى صناديق النذور تعلق بجدرانها ؟ ، ألم تر إلى السرج والقناديل المعلقة عليها ؟ .

ألم تر إلى القباب التي تظلها ؟ .

إن لم تكن قد رأيت أصنام الجاهلية فانظر إلى هذه التوابيت فإنها هي أو صورة مشوّهة منها .

إن بدا لك أن تزور القبور التماساً للعظة والاعتبار ورقة القلب وتذكر الموت ، فدع تلك التي قامت عليها

الأوثان ، والتمس غيرها في كل مكان ، فإنها ملءُ الفضاء في جميع الأرجاء .

- ٧ -

إن القبور التي أُقيمت في القاهرة أو غيرها من المدن والبلاد والقرى الإسلامية باسم أهل البيت وغيرهم من الأولياء والصالحين لا عظة في زيارتها ولا اعتبار ، ولا هداية ولا ادّكار ، إنما العظة في القبور الشرعية اللاصقة بالأرض ، المجردة من كل زينة ، وصورة وقبّة وثوب ، وعمامة ، وتابوت وسدنة ومسجد .

العظه في تلك الأحداث الهامة ، المغبرة المقشعِرّة ، التي تشعرك بأن هذا العظيم أو ذاك أصبح رفاتاً سحيقاً ، وصعيداً جرزاً ، لا في تلك التي توسوس إليك أن ساكنيها صار بطلا مقصوداً ، أو إلهاً معبوداً . تلك التي صارت أصناماً وأوثاناً وطواغيت تدعى من دون الله ، ويرجى منها ما لا يرجى إلا من الله .

لقد قال علي بن أبي طالب لأبي الهياج الأسدي . إني

أبعثك على ما بعثني به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : اذهب فلا تدع قبراً مشرفاً إلا سويته ، ولا تمثالا قائماً إلا طمسته : فواجب أن تسوى هذه القبور بالأرض حتى تصير قبوراً شرعية تحصل العظة بزيارتها .

فإذا عجزنا عن هدمها وتسويتها بالأرض فلا أقل من أن نجتنب زيارتها ، عملا بقول الله تعالى في سورة الزمر : « وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى ، فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ »[1] .

وإدخال هذه الطواغيت في عداد القبور الشرعية التي تُزار للعظة والاعتبار ظلم للشريعة الغرّاء ، وافتراءٌ على عقيدة التوحيد . وكيف تحصل العظة ، وتأتي العبرة بأوثان قائمة وأصنام منصوبة تخدمها السدنة ويطوف من حولها العابدون؟

---

(١) سورة الزمر : ١٧ ، ١٨ .

وهل القائم عندها ، المائل بين عابديها إلا شاهد زور ، ومكثر لسواد المشركين ؟ .

لقد شاهدت الأَصنام القائمة في هياكل الفراعنة الأَقدمين فلم أجد فرقاً بينها وبين الأَصنام المقامة على قبور المسلمين إلا أن أَصنام الفراعنة أجود صنعاً ، وأكثر إتقاناً .

وما كانت الأَصنام التي هدمها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمر بهدمها إلا دون الأَصنام المقامة على قبور المسلمين . فإنّا لله وإنّا إليه راجعون .

النذر

هـل يباح النذر للأولياء

أجلو عليك بادي ذي بدءٍ النصوص اللغوية التي تقف منها على حقيقة النذر ، ثم أورد عليك الأحاديث النبوية التي تدرك منها حكمه الشرع ، ثم أظهرك على ما تورط فيه كثير من المسلمين بجهلهم وتغرير سماسرة السوء بهم ، لتعلم مبلغ انصراف فريق من المسلمين عن دينهم ، وإعراضهم عن الحق ، واندفاعهم في سبيل الغواية والشرك ، الذي جرّ عليهم البلاءُ المجسم والشقاءُ المحتّم ؛ ولتكون على بينة من أمرك فلا تأخذ إخذهم ، ولا تسلك سبيلهم ، بل تستمسك بالحق وتعتصم بالله . ومن يعتصم بالله فقد هُدي إلى صراط مستقيم .

١ – قال الفيروزابادي في القاموس المحيط : نذر على نفسه بنذر ، وينذرُ نذراً أوجبه كانتذر . ونذر ماله ، ونذر لله كذا . أو النذر ما كان وعداً على شرط ، فعليّ إن شفى الله مريضي كذا نذر . وعليّ أن أتصدق بدينار ليس بنذر اهـ .

وقال الراغب الأصفهاني في مفرداته في غريب القرآن : النذر أن توجب على نفسك ما ليس بواجب لحدوث أمر . اهـ

وقال ابن الأثير في النهاية : نذرت أنذِر وأنذُر إذا أوجبت على نفسك شيئاً تبرعاً من عبادة أو صدقة أو غير ذلك .

وقد تكرر في أحاديثه ذكر النهي عنه ، وهو تأكيد لأمره وتحذير عن التهاون به بعد إيجابه . ولو كان معناه الزجر عنه حتى لا يفعل لكان في ذلك إبطال حكمه وإسقاط لزوم الوفاء به . إذا كان النهي يصير معصية فلا يلزم . وإنما وجه الحديث أنه قد أعلمهم أن ذلك أمر لا يجر لهم في العاجل نفعاً ولا يصرف عنهم ضراً ، ولا يرد قضاءً ، فقال : لا تنذروا على أنكم قد تدركون بالنذر شيئاً لم يقدره الله لكم ، أو تصرفون به عنكم ما جـرى به القدر عليكم ، فإذا نذرتم ولم تعتقدوا هذا فأخرجوا عنه بالوفاء ، فإن الذي نذرتموه لازم لكم اهـ .

يستنبط من هذه النصوص أن النذر ما كان وعداً على شرط كما هو أحد قولي صاحب القاموس . وكما قال الراغب

ألا توجب على نفسك ما ليس بواجب لحدوث أمر ، كما يفهم من أحاديث النهي التي أشار إليها ابن الأثير في النهاية.

ومثال ذلك أن تقول بعد أن شفى الله مريضك أو قضى حاجتك أو رزقك مالا أو ولداً .

لله عليّ صوم أو صلاة أو حج أو عمرة أو صدقة أو غير ذلك من ألوان الطاعات والقربات شكراً له تعالى على ما أنعم .

٢ ـ قال الإمام البخاري : حدثنا يحيى بن صالح ، حدثنا فليح بن سليمان ، حدثنا سعيد بن الحارث أنه سمع ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يقول: أولم ينهوا عن النذر ؟ إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (إن النذر لا يقدم شيئاً ولا يؤخر ، وإنما يستخرج بالنذر من البخيل) .

وقال : حدثنا خلاد بن يحيي ، حدثنا سفيان عن منصور ، أخبرنا عبد الله بن مرة عن عبد الله بن عمر : نهى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن النذر وقال : (إنه لا يرد شيئاً ولكنه يستخرج به من البخيل) .

وقال أيضاً : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد عن الاعرج عن أبي هريرة قال : قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (لا يأْتي ابن آدم النذر بشيءٍ لم يكن قدّر له ؛ ولكن يلقيه النذر إلى القدر قد قدّر له ، فيستخرج الله به من البخيل فيؤتى عليه ما لم يكن يؤتى عليه من قبل) .

وقال أيضاً : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا مالك عن طلحة ابن عبد الملك عن القاسم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه » .

وقال أيضاً : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا وهيب حدثنا أيوب عن عكرمة عن ابن عباس قال : بينما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخطب إذا هو برجل قائم ، فسأل عنه ، فقالوا : أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ، ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم . فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مُروه فليتكلم ، وليستظل ، وليقعد وليتم صومه » .

٣ ـ ماذا نفقه من هذه الأحاديث ؟

أولا : أن النبي نهى عن أن يعتقد الناذر أن النذر يجري له نفعاً في العاجل أو يصرف عنه ضراً ، أو يرد قضاءً ، أو يدرك به شيئاً لم يقدره الله تعالى ، أو يدفع عنه ما جرى به القدر عليه .

ثانياً : يجب الوفاءُ بالنذرِ على كل حال إن كان المنذور طاعة لله تعالى ، كالصلاة والصيام والصدقة والحج والعمرة .

ثانياً : يجب عدم الوفاءِ بالنذر إن كان معصية .

نتيجة

النذر إما أن يكون طاعة ، وإما أن يكون معصية كما جاء في الحديث الشريف، أما نذر المعصية فقد نهينا عن الوفاء به ، وأما نذر الطاعة فهو عبادة ، والعبادة لا تكون إلا لله ، وتوجيهها لغيره تعالى شرك .

إذاً لا يباح النذر للأولياء على أي حال .

وإذا كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد نهى عن النذر لله القوي القادر سبحانه وتعالى إذا اعتقد الناذر أن النذر يغني عنه شيئاً . فكيف إذا وجّه النذر لغير الله ؟.

وإذا تقصيت أحوال أولئك الذين ينذرون لغير الله تعالى وجدتهم يعتقدون اعتقاداً جازماً أن هذا النذر يجدي عليهم ، ويجلب لهم الخير ويدفع عنهم الشر ، ولولا هذه العقيدة ما أقدموا على النذر ولا فكروا فيه .

مغالطة

إذا نهيت بعضهم عن النذر لغير الله ، من الأَوليـاء وأَصحاب القبور رد عليك قائلا : (النذر لله ، والثواب للشيخ) ، يا للعجب ؟ .

قل : من لك بـأَنك ملكت هذا الثواب ، والثواب من أُمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله ؟ .

ومن لك بـأَن الله قبل نذرك وأَثابك عليه ؟ .

ومن لك بـأَن هذا الثواب قابل للتحويل ؟ .

ثم قل : ما الباعث الذي يبعثك على أَن تؤثر هـذا الشيخ أَو ذاك بثواب النذر ؟ فهل الشيخ أَبوك ، أَم هل هو جدك فتحرص على أَن تستنزل عليه رحمة الله ؟ ، أَولا ، فماذا يدفعك إلى أَن تؤثره بالثواب دون موتى المسلمين ؟ .

أَليس ذاك لأَنك تعتقد أَنه قادر على أَن يجلب لك خيراً أَو يدفع عنك ضراً ، فأَنت ترجو خيره وتخشى ضره ولولا هذا ما آثرته بثواب نذرك ، ولا فكرت في النذر الذي تدعي أَنك جعلت له ثوابه .

دعوا المغالطة يا قوم ؟ وأخلصوا دينكم لله ، واعبدوه مخلصين له الدين ، ولا تشركوا بعبادته أحداً .

* * * *

إن نذراً واحداً لأحد أصحاب القبور قد يجمع في ثناياه آثاماً كثيرة ، ويحمل تضاعيفه أوزاراً ثقالا .

فمن نذر زيتاً أو شمعاً يوقد على قبر من هذه القبور التي رفعت عليها القباب ووضعت فوقها الخشب مكسوة بالثياب ؛ فقد جمع في نذره هذا بين ثلاث خطايا أيسرها يقصم الظهر :

الخطيئة الأولى: النذر لغير الله تعالى ، وكفى به إثماً مبيناً .

الخطيئة الثانية : الوفاءُ به من حيث هو وفاءُ بمعصية .

الخطيئة الثالثة : إيقاد السرج على القبور ، وقد لعن الله تعالى فاعليه .

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج).

وقال تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ ، وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً »[1] .

* * * *

يا قوم : ألهمكم الله الرشد : إلى متى تتبعون خطوات الشيطان وتعرضون عن الحق ، وتعبدون الموتى ؟ .

يا قوم : ما هذه الأموال التي تتدفق في صناديق النذور الملصقة بالمقاصير ، المقامة حول القبور ؟ .

أتدرون فيم تنفق هذه الأموال ، ومن الذي يستأثر بها ؟ أتظنون أنها صدقات ؟ لقد أسأتم من حيث تظنون أنكم محسنون ؟ ؟.

إن أحق الناس بصدقتك : الفقراءُ والمساكين من أولي قرباك ؟ ، فإن لم يكن فيهم فقراءُ ولا مساكين ، فجيرانك ثم أهل بلدك من الذين أخنى عليهم الدهر وعضهم بنابه ، وعبثت بهم أحداث الزمان ، وحال التعفف بينهم وبين

---

(١) سورة النساء : ٥٢

السؤال وإراقة ماء الوجوه ؛ فأعطهم من مال الله الذي آتاك تجده عند الله هو خيراً وأعظم أجراً .

ولا يجر منك السفه والجهل على أن تقذف به في صناديق النذور ، فلعله صائر إلى يد من لا يرضى أن يتخذك خادماً في قصره ولعله ينفقه في ألوان البذخ ، وضروب من الترف ، وأنت في حاجة إلى أن تبتاع به الضروري من كسائك أو غذائك .

يا قوم : أناشدكم الحق ، لِمَ تخافون غير الله ، ولِمَ ترجون غير الله ، وهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ؟ .

يا قوم : أين يذهب بكم ، ما هذا الذي تعملون ؟ ، قليلا من الاناة ، قليلا من الرواية ، قليلا من التعقل ، قليلا من التفكير ، يتبين لكم الحق ، ويتضح الرشد .

يا قوم : مهلا بعض هذا السفه ، لا تغرقوا في الشرك ، فعسي أن يفصح الصبح لذي عينين ، وتنجلي الرغوة عن الصريح فتعظم الحسرة ويشتد الندم .

يا قوم : أُناشدكم الله ألا توفوا هذه النذور الباطلة ، والضعيف الذي يناجيكم مستعد كل الاستعداد أن يعوضكم من كل ضرر يعتريكم به هؤلاء الموتى الذين تخشونهم ، إن استطعتم أن تثبتوا أن الضرر أتاكم من قِبلهم وبتأْثيرهم.

ماذا أقول . ما من فلاح يملك جاموسة أو بقرة أو ثوراً أو ناقة أو جملا إلا وللبدوي أو غيره في أنعامه قيراط أو قيراطان . لماذا ؟ أهو الخالق لها أم هو الرازق بها أم هو الحفيظ عليها ، أم هو الذي أنبت لها العشب ، أم هو الذي أخرج المرعى : أولا ؛ ففيم استوجب هذا النصيب الذي تفرضه له على نفسك فيما رزقك الله فرضاً ؟.

إن كنت في غنى عن هذا النصيب فاجعله لله تعالى صدقة على الفقراء والمساكين شكراً لله على نعمه التي أفاضها عليك ومتّعك بها . أم هو الشيطان يأْبى إلا أن يجعل في أنفك بُرَة يقودك بها إلى المهالك وأنت غافل عما يراد بك ؟.

فاتق الله واحتفظ بدينك ، واتبع كتاب ربك وسنة نبيك ، ولا تكن كهؤلاء الذين قال الله تعالى فيهم :

« وَجَعَلُوا لِلّٰهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا : هَذَا لِلّٰهِ بِزَعْمِهِمْ ، وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللّٰهِ ، وَمَا كَانَ لِلّٰهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ »[1] .

ويعجبني قول المرحوم حافظ إبراهيم :

أحيـاؤنا لا يُرزقـون بـدرهم
وبألف ألف تـرزق الأمـوات

من لي بحـظ النائمين بحفـرة
قامت على أحجـارها الصلوات ؟

يسعى الأنام لها ، ويجـري حولها
بحر النذور ، وتقـرأُ الآيات

ويقال : هـذا القطب باب المصطفى
ووسـيلة تقضى بهـا الحاجات

---

(١) سورة الأنعام : ١٣٦ .

هل يباع القسم للأولياء

القسم : هو الحلف. وإنك لتقف على جواب هذا السؤال إذا قرأت ما أورد عليك من الأحاديث الصحاح التي نهى فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن القسم بغير الله تعالى .

قال الإمام البخاري : حدثنا عبد الله بن سلمة عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب ، يحلف بأبيه . فقال : (ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » .

فهذا الحديث الشريف يوصد أمامك جميع سبل الحلف إلا سبيل الحلف بالله تعالى .

ونقل الإمام البغوي في مصابيح السنة عن عبد الله بن عمر : « من حلف بغير الله فقد أشرك » .

وفي الحديث يجعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحلف بغير الله شركاً تقبيحاً لأمره ، وتشنيعاً على فاعله .

وإذا كان الأصل أن الحلف لا يكون إلا بالله تعالى ، فمن حلف بغيره فكأنه ألّهه ، ومن هنا اعتبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حلف بغير الله مشركاً .

وعبارة (غير الله) جامعة يندرج تحتها كل ما سوى الله تعالى من الملائكة والإنس والجن ، وكل مخلوق .

وعلى هذا لا يجوز الحلف بالملائكة ولا بالأنبياء ، ولا بالأولياء ، ولا بالصالحين ، ولا بأي مخلوق مهما يعظم شأنه ، ويعل قدره .

وما أكثر ما يدور على ألسنة الناس من الحلف بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والأولياء والصالحين . وقد رأيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد نهى عن ذلك ، وشدد النكير على فاعله حتى جعله شركاً . فما لنا لا نطيع الرسول ؟ ومالنا ننكب عن سنته ، وطاعته طاعة لله ، ومعصيته معصية لله . وقد قال تعالى : « وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً »[1] .

---

(١) سورة النساء : ١١٥

الاستغاثة بالأولياء

الاستغاثة طلب الغوث والنجدة ، كما أن الاستنصار طلب النصر ، ولا جرم أنه يستغاث بالمخلوق فيما يقدر عليه من الأمور ، وما يدخل في طوق إمكانه ، ولا أظن ذلك في حاجة إلى دليل ، فهو واضح حق الوضوح .

يسطو اللص على أهل منزل ، فيستغيثون بالشرطة للقبض عليه . يعبث الذئب في الغنم فيستغيث الراعي بإخوانه لذوده عنها ، يعتدى عليك معتد أثيم فتستغيث من حولك ليدفعوه عنك ، كل هذا سائغ ، وكل هذا حلال مطلق ؛ فمن فعله فلا إثم عليه ، قال تعالى : « فَاسْتَغَاثَهُ الَّذي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ »(١) ، وقال تعالى : « وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ في الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ »(٢) ، وقال تعالى: « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ »(٣) .

أما الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله ، فلا يستغاث فيها

---

(١) سورة القصص : ١٥ .
(٢) سورة الأنفال : ٧٢ .
(٣) سورة المائدة : ٢ .

إلا به هو ، مثل : كشف الضر ، ودفع الفقر ، وغفران الذنب والهداية إلى سبل الخير .

قال تعالى : « أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ، وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ، أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ ؟ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ »(١) . وقال تعالى « يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ . هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟»(٢) ، وقال تعالى «وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ »(٣). وقال تعالى : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ »(٤) .

أضرب لك مثلا : رجلا زلت قدمه فسقط في بئر ، فإذا استصرخ واستغاث مَن حوله مِن الناس ليغيثوه وينقذوه من البئر فلا إثم عليه ، لأن ذلك من الأسباب المشروعة التي أمر الله بها أن تتخذ ما دام واثقاً أن الغوث من عند الله .

وإن لم يكن حوله أحد فاستغاث الله ، وسأله ضارعاً

---

(١) سورة النمل : ٦٢ .
(٢) سورة فاطر : ٣ .
(٣) سورة آل عمران : ١٣٥ .
(٤) سورة القصص : ٥٦ .

إليه أن يبعث إليه من ينجيه فقد التجأ إلى القوي القادر الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء .

ولكنه إذا استغاث مخلوقاً بعيداً عنه بينه وبينه شقة [1] لم تجر سنة الله أن يسمعه من ورائها ، فقد افترى إثماً عظيماً ، وقال منكراً من القول وزوراً .

وأكثر ما تسمع من استغاثة الناس من هـذا النوع المحظور .

والعجب لهم : كيف يستغيثون غير الله ، والله منهم قريب ؟ .

ألم يروا كيف يقول الله تعالى : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » [2].

وكيف يقول : « وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » [3].

أيشكون في قدرة الله تعالى ؟ أيمترون في علمه ؟ أيرتابون في رحمته ؟ أيعتريهم الشك في إجابته ؟ .

---

(١) مسافة .
(٢) سورة البقرة : ١٨٦ .
(٣) سورة غافر : ٦٠ .

قال الله تعالى : « لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبونَ لَهُمْ بِشَيءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ ، وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ »(١).

روى الطبراني في معجمه الكبير : أنه كان في زمن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ منافق يؤذي المؤمنين ، فقال أبو بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ : قوموا بنا نستغيث برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هذا المنافق . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله » .

ولا ريب أن مراده ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه لا يستغاث به فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، كتحويل قلب هذا المنافق عن إرادة الشر بالمؤمنين ، وأما نهيه عن الأذى فهو مما يملكه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ما أراده الصدّيق ، فحين قال ـ رضي الله عنه ـ : قوموا بنا نستغيث برسول الله كان يريد أن يطلبوا من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ينهاه عن أذى المؤمنين ، وذلك

---

(١) سورة الرعد : ١٤ .

مما يستطيعه الرسول ويقدر عليه ويملكه ، وحين قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله تعالى » ، كان مراده : إني وإن قدرت على نهيه عن أذى المؤمنين ، لا أملك تحويل قلبه وتغيير إرادته ؛ فإن ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله الذي يحول بين المرء وقلبه ، فمنه الغوث وإليه ترجع الأمور .

وصفوة القول : أن المغيث على الإطلاق هو الله وحده ، فإن يسر لك بعض المخلوقين ليغيثوك فيما جرت به سنة الله ، فذلك من فضله ورحمته ، له الحكم وإليه ترجعون .

الشوسل

يا لله لصاحب الحق المهضوم ؟ لشد ما قاسيت من الكلام في هذا الموضوع ، فلقد كابدت منه بلاءً وعنتاً .

لقد جعله الناس حديث سمرهم ولهوهم ، والقطب الذي دارت من حوله عرائض الشكوى ، لا يمتاز في ذلك قارئ من عامي ، ولا عالم من جاهل .

والحق أن الخطب سهل ، والأمر هيّن ، لا يحمل كل هذه الضجة التي أثاروها ، ولا الشكوى التي عجّوا بها ، ولا الصخب الذي لجّوا فيه ، ولكن الجهل داءٌ عياءٌ ؛ ليس له من دون العلم دواءٌ .

ولو أن الناس اصطنعوا الأناة ، وفهموا المعنى الدقيق للكلمة لاستراحوا ؛ وأراحوا ؛ ولاذوا بجانب الحق فرحين مستبشرين .

وهأنذا أبسط الموضوع للقارىء المنصف ، لعل فيه تبصرة وذكرى لمن ألقى السمع وهو شهيد .

النصوص اللغوية

جاء في لسان العرب :

الوسيلة المنزلة عند الملك ، والوسيلة الدرجة ، والوسيلة القربة . ووسل فلان إلى الله وسيلة إذا عمل عملا تقرّب به إليه ، والواسل الراغب إلى الله .

قال لبيد :

أرى الناس لا يدرون ما قــدر أمرهم
بلى ، كل ذي رأي إلى الله واســل

وتوسل إليه وسيلة إذا قرب إليــه بعمل . وقال الفيروزابادي في القاموس المحيط : الوسيلة والواسلة المنزلة عند الملك ، والدرجة والقربة ، ووسّل إلى الله توسيلا ؛ عمل عملا تقرّب به إليه كتوسل . والواسل : الواجب والراغب إلى الله تعالى .

وقال الراغب في مفردات القرآن : الوسيلة التوصل إلى الشيء برغبة : وهي أخص من الوصيلة لتضمنها معنى

الرغبة . قال تعالى : «وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ»[1]، حقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة وتحري أحكام الشريعه ، وهي كالقربة ، والواسل : الراغب إلى الله تعالى اه .

وقال ابن الأثير في النهاية في حديث : (اللهم آت محمداً الوسيلة) هي في الأصل ما يتوسل به إلى الشيء ، وجمعها : وسائل . ويقال : وسلَ إليه وتوسل . والمراد بها في الحديث : القرب من الله تعالى . وقيل : هي الشفاعة يوم القيامة ، وقيل : هي منزلة من منازل الجنة ، كذا جاء في الحديث .

وفي المصباح المنير : وسلت إلى الله بالعمل أَسِل من باب وعد رغبت وتقرّبت ، ومنه اشتقاق الوسيلة ، وهي ما يتقرب به إلى الشيء ، والجمع : الوسائل ، والوسيل . قيل : جمع وسيلة ، وقيل : لغة فيها ، وتوسل إلى ربه بوسيلة تقرب إليه العمل .

وفي أساس البلاغة : توسلت إلى الله بالعمل تقربت .

---

(١) سورة المائدة : ٣٥ .

وفي المختار : التوسيل والتوسل واحد ، يقال : وسّل فلان إلى ربه بالتشديد وسيلة ، وتوسل إليه بوسيلة إذا تقرب إليه بعمل .

وفي المنجد : وسل يسل وسيلة ، ووسل وتوسّل إلى الله عمل عملا تقرب به إليه تعالى .

أقوال المفسرين

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ »[1] . الوسيلة كل ما يتوسل به ، أي يتقرّب من قرابة أو صنيعة أو غير ذلك ، فاستعيرت لما يتوسل به إلى الله تعالى من فعل الطاعات وترك المعاصي ، وأنشد اللبيد :

أري النـــاس لا يدرون ما قـــدر أمرهم
ألا كل ذي لب إلى الله واسل . « اهـ »

وقال الألوسي في تفسير الآية المذكورة : الوسيلة هي فعيلة بمعنى ما يتوسل به ويتقرب إلى الله – عز وجل – من فعل الطاعات وترك المعاصي ، من وسل إلى كذا ، أي تقرب بشيء . ولعل المراد بها الاتقاءُ المأمور به ، كما يشير كلام قتادة فإنه ملاك الأمر كله ، والذريعة إلى كل خير .

وقيل : الجملة الأولى : « اتقوا الله » أمر بترك المعاصي ، والثانية : « وابتغوا إليه الوسيلة » أمر بفعل الطاعات .

---

(١) سورة المائدة : ٣٥ .

وأخرج ابن الأنباري وغيره عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن الوسيلة : الحاجة ، وأنشد عنترة :

إن الرجـال لهم إليـك وسـيلة
أن يأخذوك تكحـلي وتخضبي

وكأن المعنى : اطلبوا إليه حاجتكم متوجهين إليه ، فإن بيده – عز شأنه – مقاليد السموات والأرض ، ولا تطلبوها متوجهين إلى غيره فتكونوا كضعيف عاذ بقرملة [1] اهـ .

وقال البيضاوي في تفسير الآية المذكورة : الوسـيلة ما تتوسلون به إلى ثوابه والزلفي منه من فعل الطاعات ، وترك المعاصي ، من وسل إلى كذا إذا تقرب إليه . وفي الحديث : الوسيلة : منزلة في الجنة اهـ .

وقال النسفي : الوسيلة هي كل ما يتوسل به أي يتقرب من قرابة أو صنيعة أو غير ذلك ، فاستعيرت لما يتوسل به إلى الله من فعل الطاعات وترك السيئات .

---

(١) شجرة ضعيفة بلا شوك تنفضخ إذا وطئت .

وقال أبو السعود: هي فعيلة بمعنى ما يتوسل به ويتقرب إلى الله تعالى من فعل الطاعات وترك المعاصي . من وسل إلى كذا تقرب إليه بشيء ، وجاء في تفسير الجلالين : الوسيلة ما يقربكم إليه من طاعته .

وقال ابن جرير الطبري : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلة»[1] يعني جل ثناؤه : يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله فيما أخبرهم ووعدهم من الثواب ؛ وأوعد من العقاب « اتقوا الله » . يقول : أجيبوا الله فيما أمركم ونهاكم من الطاعة له في ذلك ، وحققوا إيمانكم وتصديقكم ربكم ونبيكم بالصالح من أعمالكم « ابتغوا إليه الوسيلة » يقول : واطلبوا القربة إليه بما يرضيه ، الوسيلة هي الفعيلة من قول القائل : توسلت إلى فلان بمعنى تقرّبت إليه . ومنه قول عنترة :

إن الرجـال لهم إليـك وسيلة
أن يأخذوك تكحـلي وتخضبي

يعني بالوسيلة القربة ، ومنه قول الآخر :

---

(١) سورة المائدة : ٣٥ .

إذا غفل الواشون عـدنا لوصلها
وعاد التصـافي بيننا والوسائل

وبنحو الذي قلنا في ذلك ، قال أهل التأويل ، ثم روي بعد ذلك عن عطاء أنها القربة ، وعن مجاهد « ابتغوا إليه الوسيلة » : أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه .

* * * *

أسوق إلى فطنتك هذه النصوص الصريحة الواضحة من أقوال اللغويين والمفسرين . وإليهم يرجع الأمر في فهم معاني الكلمات القرآنية ، عسى أن تقنعك بأن الوسيلة هي كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من فعل الطاعات وترك المعاصي .

وأن التوسل هو ابتغاء الوسيلة إلى الله تعالى ، أي التقريب إليه ، تلك هي الوسيلة الحق التي يدعو الله الناس إليها ، فأداء الفرائض وسيلة ، وترك المحرمات وسيلة ، وطلب العلم النافع وسيلة ، وتلاوة القرآن مع التدبر وسيلة ، والصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم – والكلمة الطيبة تدخل بها السرور على المؤمن وسيلة ، والاشتراك في أعمال

البر وسيلة ، والحض على طعام المسكين وسيلة ، والعطف على اليتيم وسيلة ، والمعروف وسيلة ، وإماطة الأذى عن الطريق وسيلة .

هذا ميدان فسيح للتوسل فادخلوا من أي من أبوابه شئتم ، هذا توسل المؤمنين الأنقياء البررة الصالحين ، الذين يتوسلون إلى الله بعمل صالح تطهر به نفوسهم ، وتزكو أرواحهم ، وتستنير قلوبهم ، ويرضى الله عنهم ، ويثيبهم جنات تجري من تحتها الأنهار .

ذلك هو التوسل الحق يتمثل في البذل في سبيل الله وفي سبيل الخير الحق ، وفي التضحية بالمال والوقت والبدن في سبيل الله ، وابتغاء مرضاته .

قال البخاري : حدثنا إسماعيل بن خليل ، أخبرنا علي ابن مسهر عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : (بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون ، إذ أصابهم مطر فأووا إلى غار ، فانطبق عليهم ، فقال بعضهم لبعض : إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق ، فليدع كل رجل

منكم بما يعلم أنه صدق فيه ، فقال واحد منهم : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجيراً عمل لي على فرق من أرز[1] ، فذهب وتركه ، وإني عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته ، فصار من أمره أني اشتريت منه بقراً ، وأنه أتاني يطلب أجره ، فقلت له : اعمد إلى تلك البقر ، فسقها ، فقال لي : إنما لي عندك فرق من أرز ، فقلت له : اعمد إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفرق ، فساقها : فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرّج عنا ، فانساحت عنهم الصخرة . فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران ، وكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم ، فأبطأت عنهما ليلة ، فجئت وقد رقدا ، وأهلي وعيالي يتضاغون[2] من الجوع ، فكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي ، فكرهت أن أوقظهما ، وكرهت أن أدعهما فيسكنا لشربتهما ، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرّج عنا ، فانساحت الصخرة حتى نظروا

---

(١) مكيال بالمدينة يسع ثلاثة آصع أو ستة عشر رطلا .

(٢) يتصايحون .

إلى السماء . فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إلي ، وأني راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار ، فطلبتها حتى قدرت عليها ، فأتيتها بها فدفعتها إليها ، فأمكنتني من نفسها ، فلما قعدت بين رجليها قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه . فقمت وتركت مائة الدينار ، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرّج عنا ، ففرج الله عنهم ، فخرجوا » اهـ .

وقد روى الإمام مسلم هذا الحديث أيضاً مع اختلاف يسير في اللفظ .

ما قصّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أصحابه هذه القصة الرائعة باطلا ، ولا حكاها لهم عبثاً ، وإنما أراد أن يعلمهم استباق الخيرات لتكون لهم وسيلة إلى الله تعالى ، يسألونه بها إذا ضاقت عليهم الأمور ، واستحكمت حلقات الكرب . يريد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يحبب إليهم العمل الصالح وإحياء الضمير ومراقبة الله حتى تصدق تقواهم ، ويكمل إيمانهم ، وضرب لهم المثل بهؤلاء النفر

الثلاثة الذين صدقوا خشية الله واتقوه حق تقواه ، فكانت التقوى منجاة لهم من ضيق الدنيا ، « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » .

فهذا رجل يتوسل إلى الله بأمانته ، وقيامه في مال هذا الأجير بالحق ، واستثماره له حتى بلغ ما بلغ ، وطابت نفسه عن كل هذا المال الكثير ، لعلمه أنه نماءُ مال العامل الفقير ، وإنما فعل ما فعل ابتغاءُ مرضاة الله وحرصاً على طاعته وخوفاً من عقابه ، فهذه وسيلة صادقة فيها تضحية بالمال والجهد ، وحمل النفس على مكروهها ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .

وهذا رجل برّ بوالديه ، دفعه البرّ بهما إلى أن ينتظرهما وهو يحمل لهما غبوقهما من اللبن حتى مطلع الفجر ، وأهله وأولاده يتضاغون من حوله من الجوع ، ما حمله على ذلك إلا خشية الله تعالى الذي أوجب حقهما ، وحض على الإحسان إليهما ، وفي هذا تضحية بالراحة ، واحتمال لألم السهر ، ومكابدة لما يؤذيه من تضاغي أولاده من الجوع ، وهو

لا يريد أن يقدمهم على أبويه إيثاراً لهما وبرّاً بهما ، واعترافاً بحقهما ، وطاعة لله تعالى في الإحسان إليهما .

فهو توسل إلى الله بما احتمل في سبيله ، وهو حقيق أن يستجيب له .

وهذا رجل عبث الشيطان به ، وأغراه بالإثم ، وحببه إليه حتى إذا همّ باقترافه ، ذكّرته صاحبته حق الله فذكر ، وأعرض عن الفاحشة خوفاً من الله تعالى ، وترك المال لصاحبته تسد به حاجتها . فهذه تضحية بالمال ، وصبر عن نزوات النفس وشهواتها ، ومجاهدة للشيطان ، ولا جرم أن من يتوسل إلى الله بذلك قمين أن يستجيب الله له .

تلك المكارم لا قعبان من لبن
شيباً بماء فعادا بعد أبوالا

* * * *

يا قوم : أمركم الله أن تبتغوا إليه الوسيلة بأعمال الخير وأفعال البر والطاعة والعبادة ، وعصيان الهوى ، والصبر عن الشهوات ولذّات العاجلة ، فشدوا حيازيمكم ، وتوسلوا

إلى الله بما يرضيه ولا تقاعسوا واستجيبوا لله ورسوله إذا دعاكم لما يحييكم .

يا قوم : هذا هو التوسل ، فمتى أنكرناه عليكم ، ومتى نهيناكم عنه ؟ وكيف ننهى عما أمره الله به ؟ وهل بلغ بنا السفه والحمق أن ننهى عن طاعة الله والتوسل إلى رضوانه ؟

يا قوم : اتقوا الله ولا تقولوا إلا الحق ، واعلموا أن العبد مأخوذ بما يقول : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيب عَتِيدٌ »(١) .

فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور .

يا قوم : ما يمنعكم أن تتوسلوا بتصديق النبي – صلى الله عليه وسلم – والإيمان بما جاءَ به ، وطاعته في أمره ونهيه وإعظام حقه ، وتوقيره ، وإحياء سنته ، وبث دعوته ، ونشر شريعته ، ونفي التهم عنها ، والتفقه فيها ؟ .

وما يمنعكم أن تتوسلوا بمحبته والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه ؟ .

---

(١) سورة ق : ١٨ .

ما يمنعكم أن تتوسلوا بالصلاة عليه ؟ فهذه وأشباهها وسائل صحيحة ، فتوسلوا بها إلى الله تعالى تثابوا وتؤجروا .

أحب الوسائل إلى الله

يا قوم : أين أنتم من أحب الوسائل إلى الله وأشدها تقرّباً إليه ؟ .

إن كنتم تريدون أن تبتغوا الوسيلة إلى ربكم فإليكم أحب الوسائل ، فابتغوها إليه ، يرض عنكم ، ويقبل عليكم ، ويجيبكم إذا دعوتم ، ويعطيكم إذا سألتم .

تلكم هي الوسيلة التي أخبر بها رب العزة في الحديث القدسي ، ومن أصدق من الله حديثاً ؟ .

روى البخاري من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن الله قال : من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب . وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه » .

يالها من مكرمة ما أعظمها ؟ .

أي وربي إنه الحق .

تلك هي الوسيلة الحق التي تقرّب إلى الله زلفى .

فكيف ينصرف الناس عن وسيلة بيّنها رب العزة العليم الحكيم ، الرحمن الرحيم - جل شأنه - إلى وسائل وضعها الجاهلون ، وروّجها المبطلون ، وأذاعها الدجّالون ، وأشاعها الأفّاكون ؟ .

* * * *

من هذا الحديث القدسي الصحيح الذي نقلته لك ، نتعلم عدة أمور ينبغي أن نحرص عليها ، ونعض عليها بالنواجذ :

أولها : أن عداوة أولياء الله عداوة لله ، ومن عادى وليًّا من أولياء الله آذنه الله بالحرب ، ومن آذنه الله بالحرب أصبح موضع غضبه وسخطه وانتقامه .

ثانيها : أن أحب القرب والوسائل إلى الله تعالى أداءُ الفرائض ، فمن أدى ما افترض الله عليه ، فشهد له بالوحدانية

ولنبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – بالرسالة ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، وصام رمضان ، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلا ، واتقى الله ما استطاع ، فقد تقرّب إلى الله بأحب القرب إليه ، وتوسل إليه بأكرم الوسائل عليه ، وحسبك قول الله تعالى : « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ »(١) .

ثالثها : أن هناك قربات تكون وسيلة إلى الله تعالى ، وسبباً في أن يحب الذي يتقرب بها ، وهي الاستمرار على التقرب إليه تعالى بالنوافل من : صلاة وصيام وصدقة وحج وعمرة وغيرها من نوافل الخير التي تقرّب إلى الله .

رابعها : أن الله تعالى إذا أحب عبده أعطاه إذا سأله ، وأغاثه إذا استغاثه ما دام متبعاً لسنته في نظام الأسباب والمسببات .

خامسها : أن الله تعالى يبارك على سمع من يحبه وبصره ويده ورجله ، فيجعله ينتفع ويهتدي بما يرى وما يسمع ،

---

(١) سورة الطلاق : ٢ ، ٣ .

ولا يحرك يده إلا بخير ، ولا ينقل قدمه إلا في سبيل رشد .

فهل يرغب عن هذه الوسائل الحق إلا من سفه نفسه ، وغبن رأيه ، وانسلخ من آيات الله ، وسنة رسوله ، وأخلد إلى الأرض ، واتبع هواه فكان من الغاوين .

ضعة من صنع الشيطان

« إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ »(١).

ماذا صنع الشيطان ؟.

رأى قوماً استرخت عُقد الإيمان في قلوبهم ، وضعف اليقين في أنفسهم ، ففتروا عن الطاعات ، وأحضرت أنفسهم الشح ، فضنوا ببذل الخير ، فدعاهم إلى أمر سهل لا يكلفهم عناءً ، ولا يقتضيهم بذلا في سبيل الله ولا نفقة في وجوه البر ، وخيّل إليهم أنه وسيلة إلى الله ، فتهافتوا عليه تهافت الذباب على الرجيع ، وراحوا يبسطون أيديهم وألسنتهم بالسوء إلى من ينهاهم عنه ، واستمسكوا به استمساك من يرى أنه لا سعادة له من دونه ، ولا نجاة بغير الاستمساك به ولا استجابة لمن لم يحرص عليه حرص الشحيح على ماله ، والجبان على روحه ، وما دروا أن عدوهم يبيت لهم الغدر ، ليفسد عليهم دينهم وهم عن كيده غافلون .

---

(١) سورة فاطر : ٦ .

مازال؟

ذلك أن الشيطان خيّل إليهم أن الوسيلة إلى الله هي الإقسام عليه ببعض خلقه ، فراحوا يقسمون عليه تعالى بفلان وفلان . أقسموا عليه تعالى بالأنبياء ، وأقسموا عليه بالأولياء ، وأقسموا عليه بالصالحين ، وأقسموا عليه بنكرات لا يعلم عاقبة أمرهم إلا الله وحده ، وأقسموا عليه بشيوخهم من الأحياء والأموات .

وقد أسلفنا لك أن القسم بغير الله تعالى لا يجوز في شرعة الإسلام ، وقدمنا لك قـول النبي – صلى الله عليه وسلم – : (من كان حالفاً فليحلف بالله أو يسكت) ، وأخبرناك أن النبي – صلى الله عليه وسلم – شدّد النكير على مَن يقسم بغير الله حتى اعتبره مشركاً . فكيف يستهين الناس بهذا الأمر حتى يقسموا على الله العلي الأعلى بكل من سال لعابه ، ورثت ثيابه وتلوث إهابه ؟ .

بعض التعقل يا قـوم يقفكم على الصواب ويهديكم طريق الحق .

ويقولون : هؤلاء أنفسهم طاهرة . نعم وأنتم أنفاسكم طاهرة ، ومهما تطهر أنفاسهم وترسخ أقدامهم في الصلاح والتقوى فلن يبيح لكم ذلك أن تقسموا بهم لأن الإقسام لا يكون إلا بالله تعالى .

ومنهم من يقول : نحن لا نقسم بهم ، وإنما نستشفع بهم . وذلك لعمر الحق قاصمة الظهر . ماذا أبقيتم لأولئك الذين قال الله فيهم : « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ »[1] ، والذين حكى عنهم أنهم يقولون : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى » [2].

ويقولون ـ وبئس ما يقولون ـ : إن كانت لك حاجة إلى حاكم ألا تتوسل إليه بأولي الزلفى لديه ، والمكانة عنده قل : نعم ، وقد أخطأتم القياس ، وخدعكم الوسواس الخنّاس .

---

(١) سورة يونس : ١٨ . (٢) سورة الزمر : ٣ .

هل لكم إلى أن تصنعوا العقل والروية ، وتتابعوا ما أقول لكم بفكر متطلب للحق ، وعقل جانح للصواب ؟ .

هذا الحاكم الذي تتوسلون إليه : إما أن يكون عادلا ، وإما أن يكون ظالماً .

والحاجة التي تطلبون إما أن تكون حقاً ، وإما أن تكون باطلا . فأما إن كان الحاكم عدلا ، وكانت حاجتكم حقاً ، فإنه لا يحوجكم إلى وسيلة ولا يضركم إلى شفيع ، بل ربما أغضبه ذلك منكم ، وعدّه طعناً في عدالته ، ووجّه إليكم بعض العتب والتثريب .

وإن كان عادلا وكانت حاجتكم باطلا ؛ فلو أتيتم بطلاع[1] الأرض وسائل وشفعاء ، فإنه لن يجيبكم إلى ما تطلبون .

وإن كان ظالماً غير عادل ، فقد تنفعكم الشفاعة عنده ، إن كانت حاجتكم حقاً أو باطلا ، وما ربكم بظلام للعبيد ، بل هو أحكم الحاكمين ، لا يظلم الناس شيئاً ، يحكم

---

(١) ملء .

ما يريد ، لا معقب لحكمه ، وقياس الله بخلقه معصية وإثم كبير ، لأن الله يقول : « فَلاَ تَضْرِبُوا للهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »[1] ، قد يجهلك الحاكم فتفتقر إلى الشفيع ليجعله يحيط بك علماً . ولكن ربك بكل شيء عليم ، « إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ[2] « يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى[3] » ، « يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْلَمُونَ بَصِيرٌ »[4] .

هل تظنون أحداً أرحم بكم من ربكم فتلوذوا به ، وترتموا في أحضانه ؟ .

رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ امرأة تحنو على طفلها وتضمه إلى صدرها وتبدي له من دلائل الرحمة والعطف والحنو ما لا سبيل إلى التعبير عنه ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم لأصحابه : (أتظنون هذه طارحة ولدها في في النار ؟ قالوا : لا ، قال : فإن الله أرحم بعباده من هذه بولدها) .

---

(١) سورة النحل : ٧٤ .
(٢) سورة آل عمران : ٥ .
(٣) سورة طه : ٧ .
(٤) سورة الحديد : ٤ .

سبحانك اللهم ما عرفوك حق معرفتك ، وما قدروك حق قدرك . لقد ضربوا لك الأمثال ، وقاسوك بالنساء والرجال ، « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ »[1] .

ألم يأتهم أن رحمة الله قريب من المحسنين ؟ فلم لا يحسنون العمل ليتهيئوا لرحمة الله؟ أم أعيتهم الصالحات فلجؤوا إلى الترهات وعاذوا بالخرافات والأمور الموبقات ، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون .

---

(١) سورة الشعراء : ٢٢٧ .

توصيه

يا قوم : ألهمني الله وإياكم الرشد .

لقد خلقكم الله بيديه ، وأفاض عليكم نعمة الحياة ، ومنحكم السمع والبصر والفؤاد ، ورزقكم العقل والتمييز ، وجعل لكم أيدياً تبطشون بها . وأرجلا تمشون بها ، وألسنة تنطقون بها ، وهيأ لكم وسائل العيش ، ورزقكم من الطيبات ، وجعل لكم أسناناً تمزقون بها طعامكم ، وغدداً تفرز اللعاب لتبله ، ويسّر لكم ازدراده ، وجعل المعدة وعاءً ينحدر إليه الغذاءُ . وجعل فيها عصارات منوعة تعين على هضمه ، وهيأ الأمعاء لتتلقاه من المعدة فتذيبه وتعده للتمثل والتحول إلى دم يغذى الجسم ، ويرد عليه ما اندثر من أنسجته في أثناءِ العمل .

وجعل لكم قلوباً تنبض فتوزع بنبضها الدم على جميع أعضاءِ الجسم ، وشرايين يجري فيها الدم نقيًّا صالحاً ، وأوردة يعود فيها الدم إلى القلب لينقله إلى الرئتين لينال من النقاءِ والإصلاح نصيباً .

وجعل لكم الرئتين لتستنشقوا بهما الهواء النقي الصالح ليمنح الدم الحرارة التي تحفظ بها الحياة ، وجعل لكم أجهزة هاضمة ، وغاذية ودافعة ، وجعل الكبد لينظم دورة السكر في الجسم ، ويدرأ عنه من السموم ما يستطيع السبيل إلى درئه ، وأودع فيه الحويصلة المرارية التي تفرز الصفراء لتعين على هضم الأغذية الدسمة التي لا تقوى على هضمها عصارات المعدة ، وجعل الكليتين لإفراز السوائل والأملاح التي تضر بالجسم .

ولا تنسوا الأجهزة الجنسية وغرائب تركيبها وعجائب إحساسها ، وجعل في العينين غدد الدمع تفرز سائلا يغسل كرة العين ويسهّل حركتها ، وجعل في الأذنين مادة ترطب الطبلة وتقيها شر الجفاف الذي يعرّضها للتمزق ، وجعل في الأنف قنوات تنقّي الهواء الذي تستنشقونه وتدفئه حتى يصل إلى الرئتين دفيئاً نقياً لا يؤذيهما .

وجعل في مواضع معينة من الجسم غدداً بمثابة حرّاس تصد عنكم خطر أعدائكم من الجراثيم الفاتكة ، وجعل في كل جسم قوة تقاوم الأمراض والآفات .

وعلم تعالى أن حياتكم تتوقف على التنفس ، ونبض القلب ، فخلق لكم الهواء يملأُ الآفاق ، وجعل أعضاء التنفس والنبض غير خاضعة لإرادتكم لتعمل في انتباهكم وغفلتكم وفي يقظتكم ومنامكم ، ولو جعلها خاضعة لإرادة الإنسان يحركها متى شاء ، ويسكنها متي أراد كسائر الأعضاء ، لأسرع إليه الموت إذا نام وغفل عن تحريكها .

وجعل لكم الأرض ذلولاً لتمشوا في مناكبها وتأكلوا من رزقه وأخرج منها ماءها ومرعاها ، متاعاً لكم ولأنعامكم .

والآن

والآن أُريد أن أسألكم وأرجو أن تجيبوني صادقين مخلصين : بمن توسلتم إلى الله حين خلقكم وأفاض عليكم جميع النعم التي ذكرت والتي لم أذكر ؟ .

بمن أقسمتم عليه حين أبرزكم من العدم خلقاً سوياً ؟ .

ألم يمنحكم هذه النعم كلها من قبل أن تسألوه ؟ .

ألم يخلقكم ويسوّكم ويعدلكم وأنتم أجنة في بطون أمهاتكم لا تعرفون الوسائط والوسائل والشفعاء ، فما بالكم عن آيات ربكم تعرضون ، ولفضله تجحدون ، ولرحمته تنكرون ؟ .

يا قوم : أقبلوا على الله ، وأعرضوا عما سواه ، واعملوا بكتابه الكريم ، وسنة نبيه الأمين . يقبل عليكم الله بفضله ويؤتِكم كِفْلَيْنِ من رحمته ويجعلْ لكم نوراً تمشون به ، ويغفرْ لكم ؛ والله ذو الفضل العظيم .

وسيلة الأنبياء

أسوق إليك من آيات الكتاب الحكيم ما يقنعك بأن جميع الأنبياء وهم أعرف الناس بالله وبما ينبغي أن يخاطب به لم يقسموا عليه تعالى بأحد من خلقه ، ولم يتوسلوا إليه بمخلوق أيًّا ما يكن .

قال تعالى فيما يحكي عن آدم وزوجه ، حين أكلا من الشجرة فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وندما على ما فعلا وتابا إلى الله من فعلتهما ، قال تعالى : « قَالاَ : رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ »(١) .

تأمّل ، هل تجدهما توسّلا إلى الله بأحد من خلقه ؟ ، إنما هي هذه الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم .

وقال تعالى فيما يحكي عن زكريا ـ عليه السلام ـ : « قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ، وَاشْتَعَلَ الرَأْسُ شَيْباً ،

---

(١) سورة الأعراف : ٢٣ .

وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا . وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا »(١) .

هل ترى زكريا - عليه السلام - أقسم على الله بأحد من خلقه ، وقد سبقه من الأنبياء من كان لهم عند الله المنزلة الرفيعة ، والدرجات العليا ؟ .

وقال تعالى فيما يحكى عن موسى - عليه السلام - : « قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي ، وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي ، هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ، كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ، وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ، إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً »(٢) .

بمن أقسم موسى - عليه السلام - وقد سبقه من الأنبياء آدم ونوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وغيرهم من الأنبياء والمرسلين ؟ . .

وقال تعالى فيما يحكي عن إبراهيم - عليه السلام - :

---

(١) سورة مريم : ٤ - ٦ . (٢) سورة طه : ٢٥ - ٣٥ .

« رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ »[1] ، « رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ »[2] ، « رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحسَابُ »[3] .

تدبر . هل تجد إبراهيم ـ عليه السلام ـ أقسم على الله أو توسل إليه بأحد من الأنبياء الذين جاءوا من قبله ؟ .

واتل قوله تعالى : « وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ : أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَـةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ . وَإِسْماعيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكَفِلِ ، كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ . وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ، إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالحِينَ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ، فَنَادَى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ، وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ

---

(١) سورة إبراهيم : ٣٥ .
(٢) سورة إبراهيم : ٤٠ .
(٣) سورة إبراهيم : ٤١ .

خَيْرُ الْوَارِثِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ » (١) .

فهل أقسم أحد من هؤلاء الأنبياء الكرام أو توسل إلى الله تعالى بأحد من خلقه ؟ ، وقد أخبر الله تعالى أنه استجاب لهم ، رحمة منه وذكرى للعابدين ، وأدخلهم في رحمته لأنهم كانوا من الصالحين الصابرين ، ولأنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعون ربهم رغباً ورهباً وكانوا له خاشعين ، فهل أنت ذا ترى أن من أسباب الاستجابة ووسائلها الصبر والصلاح والتقوى والمسارعة في الخيرات والخشوع لله تعالى ودعاءه رغباً ورهباً ، وليس من أسبابها أن تقسم عليه أو تتوسل إليه بأحد من خلقه ، فذلك من دواعي الإعراض وخيبة الرجاء .

وهذا سليمان بن داود يقول فيما حكى الله تعالى عنه في كتابه العزيز : « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي

(١) سورة الأنبياء : ٨٣ ــ ٩٠ .

بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ »[1] ، فهل تراه أقسم على الله أو توسل إليه بأبيه داود - عليه السلام - أو بأحد من الأنبياء قبله ؟ .

إنما لجأ إلى رحمة الله وفضله ، إذ يقول : « وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ » .

وإني أدعوك إلى أن تتلوا القرآن كله من أوله إلى آخره ، وتتدبر آياته ، وتنظر في أدعية الأنبياء والرسل الكرام ، لتقتنع بأن أحداً منهم لم يقسم على الله تعالى ولم يتوسل إليه بأحد من خلقه .

فلمَ لا نقتدي بأنبياء الله ورسله ، وتدعوه مخلصاً له الدين ، وأنت تعلم أن الإخلاص والتقوى سبيل الإجابة ؟ .

---

(١) سورة النمل : ١٩ .

قول مردود

يقولون : إننا نتوسل بالأولياء ونستشفع بهم ؛ لأننا مذنبون ، فلا يقبل الله منا ، وهم الصالحون الطاهرون يقبل الله منهم .

فنقول لهم : إن قولكم هذا مردود عليكم بأمور :

أولهما : أن الله تعالى يقول في سورة النساء :

« وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً »[1] .

ففي وسعكم أن تتطهروا بالمتاب من ذنوبكم وتصيروا أطهاراً صالحين ، وأبراراً طيبين ، وأولياء لله تعالى ، يرضى عنكم ويتقبل منكم ، فإنما يتقبل الله من المتقين .

أذلك خير أم إصراركم على ذنوبكم ثم توسلكم بذوات مخلوقين لا يغنون عنكم شيئاً ، ولا يملكون لكم ضراً ولا نفعاً ؟.

ثانيها : أنكم إن كنتم تتوسلون وتستشفعون بالقسم

---

(١) سورة النساء : ١١٠ .

بهم على الله فقد تبين لكم مما تقرر آنفاً أن القسم بغير الله لا يجوز .

ثالثهما : أنكم إن كنتم تتوسلون بدعائهم ، فإنهم قد ماتوا وأصبحوا لا يملكون الدعاء لكم . لأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يقول : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله » ولا مرية في أن الدعاء من العمل .

ولا يسوغ الاحتجاج بحديث عرض الأعمال على النبي – صلى الله عليه وسلم – الذي فيه : « وإن رأيت شرا استغفرت لكم » ، فقد قرر الثقات من علماء الحديث أنه مرسل. والمرسل من أقسام الضعيف الذي لا يجوز الاحتجاج به في العقائد .

أما طلب الدعاء من الأحياء فلا إثم فيه ، فإن طلبت من أحد الأحياء أن يدعو لك فما عليك من سبيل ، إنما السبيل على الذين يلتمسون الدعاء من الموتى الذين انقطعت أعمالهم ، وأفضوا إلى ما قدموا .

ولا يغرنك ما تعلم من حياة الشهداء . فإنها حياة غيبية

برزخية لا يعلم حقيقتها إلا الله تعالى ، ولا علم لنا بشيء من خواصها ومزاياها وكل ما نعلمه من أمرها أنها تصحح لهم المتاع بما أخبر الله سبحانه وتعالى به من أنهم : « عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ »(١) .

ولا نشعر بشيء وراء ذلك . قال تعالى : « بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ »(٢) .

رابعها : أن الأحياء من الأولياء يعرضون عنكم ما دمتم آثمين ويبغضونكم لذنوبكم وسيئاتكم ويبرأون إلى الله منكم .

وهذا رسول الله نوح – عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام – يدعو الله لابنه الذي عقه وخرج عن طاعته ، فيقول : « رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ، وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ

---

(١) سورة آل عمران : ١٦٩–١٧١ . (٢) سورة البقرة : ١٥٤ .

أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ »[1] ، فلا يقبل الله تعالى منه ، بل يلومه في ذلك لوماً شـديداً ويقول له : « يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ »[2] ، ويقول له في آية أُخرى : « وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ »[3].

وانظر إلى نوح - عليه السلام - كيف يتوب إلى الله من دعائه لابنه ويقول: « رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ »[4] .

ومالك ترضى أن تبقى ملوّثاً بذنوبك وآثامك ، ثم تترامى على أعتاب الأولياء ؟ ، أليس من الخير لك أن تتطهر من أوضار سيئاتك بالتوبة النصوح ، ثم ترفع إلى ربك أكف الضراعة وتدعوه تضرعاً وخفية ، وهو جدير بإجابتك ، فقد قال وقوله الحق : « ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ »[5] وقال : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ »[6] .

---

(١) سورة هود : ٤٥ .
(٢) سورة هود : ٤٦ .
(٣) سورة هود : ٣٧ .
(٤) سورة هود : ٤٧ .
(٥) سورة غافر : ٦٠ .
(٦) سورة البقرة : ١٨٦ .

السؤال بأسماء الله تعالى وصفاته

المؤمن يحب معالي الأمور ويصبو إليها ، ويربأ بنفسه عن سفاسفها ، فما لك لا تتسامى ، وما لك لا تنصرف عن المخلوقين إلى الخالق القادر العلي العظيم ؟.

لا تسأل الله بخلقه ، واسأله بأسمائه وصفاته . قل : اللهم إني أسألك بأنك أنت الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . فقد روي أن النبي – صلى الله عليه وسلم – سمع السيدة عائشة أم المؤمنين ، تسأل الله بذلك ، فقال لها : لقد سألت الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دعي به أجاب.

قل : اللهم إني أسألك برحمتك، كما قال سليمان عليه السلام .

قل : اللهم إني استخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك ، كما قال أشرف الخلق – صلى الله عليه وسلم .

قل : اللهم إني أسألك بحبك لنبيك محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولسائر أنبيائك وأوليائك .

وإن أبيت إلا أن تقسم طوعاً للعادة التي تعودتها ، فلا تقسم على اللهبأحد من خلقه ، وأقسم عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، فأي القسمَين أحق بالبر إن كنت من أولي الألباب ؟ .

لا ينبغي لك أن تسأل الله وتدعوه عند قبور الصالحين وأنت تعتقد أن الدعاء عندها مستجاب لمعنى خاص بها ؛ فذلك من البدع التي لم يفعلها السلف الصالحون .

ولا ينبغي لك أن تقول عند قبر وليٍّ : يا سيدي فلان ادع الله لي ، فلا يشك مؤمن صادق في أن ذلك غير سائغ ، إذا لم يفعله أحد من خير القرون .

ولا يسوغ لك أن تقوم على قبر وتقول : يا سيدي فلان اشف مريضي ، واكشف كربتي ، واقض حاجتي ، فإن هذا شرك جلي ، فإن شفاء المرضى ، وكشف الكروب ، وقضاء الحاجات بالقوة الغيبية التي هي وراء نظام الأسباب والمسببات ، والتي لا تدخل في كسب البشر ، إنما هي من شؤون رب العزة وحده ، لا يشاركه فيها نبي مرسل ، ولا ملك مقرّب ، يقول الله تعالى في سورة الإسراء : « قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضرِّ عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً »[1] .

---

(١) سورة الاسراء : ٥٦ .

ويقول ـ جلت قدرته ـ في سورة سبأ : « قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ، وَلاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ »[1] .

فإن نسبت شيئاً من هذه الأمور إلى غيره تعالى كان ذلك شركاً دنساً قبيحاً . نبتهل إلى الله وحده أن يعصمنا منه .

ولا يسوغ لك أن تدعو غائباً أو ميتاً عند غير القبر ، زاعماً أنه يعلم الغيب ، أو يسمع كلامك ، فإن هذا شرك صريح ؛ لأن الغيب لله وحده لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

---

(١) سورة سبأ : ٢٢ ، ٢٣ .

بهتان عظيم

يزعم بعض من لم يكتب لهم التوفيق ، أنه لا فرق بين الأحياء والأموات ، وأنك تستطيع أن تسأل الميت أن يدعو لك كما تسأل الحي .

والعجب لمن يزعمون هذا الزعم ، كيف ذهب عنهم أن الموتى قد أفضوا إلى ما قدموا ، وانقطعت أعمالهم ، وانتقلوا إلى دار لا علم لنا بشيء من أحوالها . والحكم بنفي الفرق بينهم وبين الاحياء افتراء على الله ، والله سبحانه وتعالى يقول : « وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ، وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ ، وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ ، وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلاَ الْأَمْوَاتُ ، إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ » صدق الله العظيم وحقت كلمته وخسر المبطلون[1] .

كأني بالذين يزعمون هذا الزعم الباطل لم يقرأوا القرآن ولم يمروا بهذه الآيات البينات ، التي تدحض كل

---

(١) سورة فاطر : ١٩ ــ ٢٢ .

حجة وتأتي على كل برهان . يقول الله تعالى : « وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ »[1] ، وهم يقولون : بل إنهم سواءٌ لا فرق بينهم ولا يتباينون .

عجباً لجرأة هؤلاء على ما لست أستطيع أن أسميه .

أتكذيب الله ، أم رد لقوله الحق ، أم ازدراء للقرآن ؟ أم ماذا أقول ؟ .

وأظن أن أمثال هؤلاء لا ينبغي أن تجادلهم ، لأنهم مكابرون جاحدون للحق الصراح ، منكرون لوضح النهار ، وحرارة النار ، وأثر الحس ، وضوء الشمس ، « وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ »[2] .

---

(١) سورة فاطر : ٢٢ (٢) سورة النور : ٤٠ .

سر من أسرار فاتحة الكتاب

قال ـ عليه الصلاةوالسلام ـ : (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب) ، فصار المسلمون يقرأون بها في كل ركعة من ركعات الصلوات الخمس وفي كل ركعة منركعات النوافل أيضاً .

ما السر في ذلك ؟ السر في ذلك واضح لمن يتدبر آيات الفاتحة ، ويحاول أن يفهما حق فهمها .

يريد الله ليجعل عباده ينصرفون كل الانصراف عن غيره ، ويقبلون كل الإقبال عليه .

تأمل قوله تعالى : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » ، أليس معناه : لا نعبد غيرك ولا نستعين سواك ؟ ، أي لا نوجّه أي لون من ألوان العبادة إلى غيرك ولا نرجو المعونة إلا منك .

تقرأ هذه الآية الكريمة في صلواتك سبع عشرة مرة على أقل تقدير لتملئ يقيناً بها ، وإيماناً بمعناها ، وتستشعرها في كل أحوالك حتى تكون مؤمناً حقاً ، مخلصاً لله دينك ، لا تدعو غيره ولا ترجو من سواه نفعاً ، ولا تخشى ضراً .

الفاتحة وسيلة وغاية

أنظر كيف علمك الله أن تتوسل إليه بحمده والثناء عليه وتمجيده وإفراده بالعبادة وطلب العون ، حتى إذا بلغت من ذلك ما أراد الله توجهت إليه في طلبك وسألته أن يهديك الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . وذلك خير ما يبتغى وأسمى ما تصبو إليه قلوب أولي الألباب .

ذلك ما جاء الإسلام لمحوه ، والقضاء عليه . فقد طوح الإسلام بالشفعاء والوسطاء وخلص بين العبد وربه .

قال تعالى : « وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ »(١) .

وقال تعالى : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ »(٢) .

تلك شريعة الله ، وذلك دينه . ولكن الناس مولعون أبداً بأن يشرعوا لأنفسهم ؛ ويدينوا بما تسول به لهم شياطينهم ، فقد أصبحوا لا يدعون الله تعالى إلا توسلوا إليه بشخص من الأشخاص ، سواء عليهم أكان حيًّا من الأحياء المرزوقين أم ميتاً من الأموات المقبورين . وإذا أنكر عليهم ذلك منكر رموه بكل قبيحة عوراء ، واتهموه بالزيغ والإلحاد ، وما هو شر من الزيغ والإلحاد . ولجوا في طغيانهم يعمهون .

---

(١) سورة غافر : ٦٠ . (٢) سورة البقرة : ١٨٦ .

مجنهم واضحة

تمادوا في هذا الغي ، وأعانهم عليه بعض علمائهم ، وخيلوا إليهم أنهم على حق ، واحتجوا بأحاديث ضعيفة لا يعمل بها في العقائد التي لا يؤخذ فيها إلا بالنصوص القاطعة من القرآن الكريم ، والسنة الصحيحة المتواترة .

احتجوا بحديث رواه ابن ماجة عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (من خرج من بيته إلى الصلاة فقال : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك ، وبحق ممشاي هذا ؛ فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سمعة » اهـ .

إذا نظرنا في سند هذا الحديث وجدنا فيه عطية العوفي ، وإليك ما قال فيه أئمة الحديث :

قال الحافظ الذهبي في الميزان : عطية بن سعيد العوفي الكوفي تابعي شهير ضعيف . قال أبو حاتم : يكتب حديثه ضعيف ، وقال أبو سالم المرادي : كان عطية يتشيع ، وقال أحمد : ضعيف الحديث .

وقال المنذري في الترغيب والترهيب : عطية بن سعيد العوفي ، قال أحمد وغيره : ضعيف الحديث . وقال في تلخيص سنن أبي داود : عطية ضعيف الحديث . وقال في غير ما موضع : لا يحتج بحديثه .

وقال الحافظ ابن القيم : عطية العوفي ، قال البخاري : كان هشيم تكلم فيه ، وضعفه أحمد وغيره ، وقال البيهقي : عطية العوفي لا يحتج به .

وقال الحافظ ابن حجر في التقريب : عطية بن سعيد ابن جنادة العوفي يخطئ كثيراً . كان شيعياً مدلساً .

وقال أحمد : بلغني أن عطية كان يأتي الكلبي فيأخذ عنه التفسير ، وكان يكنيه بأبي سعيد ، فيقول : وقال أبو سعيد ـ أي يوهم أنه الخدري وهذا معنى تدليسه .

فراو شهد عليه الثقات أولو العدل من أئمة الحديث بالضعف ، والتشنيع والتدليس ، وكثرة الخطأ ، لا بد أن يكون واهي الحديث منكره . وكيف يمكن الاحتجاج بحديث رواه راو قيل فيه ما سمعت ؟ .

ذلك إلى أن الحديث موقوف ، والموقوف ليس بحجة عند المحققين .

* * * *

وإذا نظرنا في متن الحديث لم نجد السؤال : أي المطلوب مذكوراً فيه ، وإذ رجعنا إلى اللغة وجدنا القاموس المحيط يقول : سأله كذا وعن كذا وبكذا ، بمعنى أي أن الفعل (سأل) يتعدى إلى المفعول الثاني بنفسه أو بعن أو بالباء ، وإذا لم يذكر المفعول الثاني في الحديث فيتعين أن يكون المجرور بالباء : أي (بحق السائلين) أي أسألك حق السائلين ، وحق ممشاي هذا ، وحق السائل الإجابة وحق الماشي إلى الطاعة الإثابة فضلا من الله ورحمة ، فكأنه يسأل الله أن يجيبه وأن يثيبه ، وليس في هذا توسل ألبتة .

فبطل الاستدلال بهذا الحديث ، وبالله التوفيق .

واحتجوا بحديث سؤال آدم بحق محمد وعلي وفاطمة والحسين ، قال الدارقطني : قد تفرد به عمر بن ثابت ، وقد قال فيه ابن معين : ليس بشيء ، وقال مرة : ليس بثقة ولا مأمون ، وقال النسائي : متروك الحديث ، وقال

ابن حبان : يروي الموضوعات ، وقال أبو داود : رافضي خبيث . وقال البخاري : ليس بالقوي عندهم ، وقال ابن المبارك : لا تحدثوا عن عمرو بن ثابت ، فإنه كان يسب السلف .

وإن حديثاً يرويه راو رافضي خبيث ، متروك الحديث ليس بثقة ولا مأمون ، يسب السلف ويروي الموضوعات ، لا يسوغ في قضية العقل أن يحتج به من عنده مثقال ذرة من إيمان .

فبطل الاحتجاج بهذا الحديث ، وبالله تعالى نتأيد .

واحتجوا بحديث الأعمى الذي قيل إنه أبصر ، باستشفاعه بالنبي – صلى الله عليه وسلم – ولفظه : أن رجلا ضريراً أتى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : ادع الله أن يعافيني . فقال : (إن شئت دعوتَ ، وإن شئت صبرتَ وهو خير » . قال : فادعه ، فأمره أن يتوضأ ، فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني

أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتقضى ، اللهم شفعه فيّ ، فعاد وقد أبصر .

وفي سنده أبو جعفر ، وقد قال فيه أحمد والنسائي : ليس بالقوي . وقال ابن المديني : كان يخلط ، وقال ابن حبان: ينفرد بالمناكير عن المشاهير . وقال أبو زرعة : يوهم كثيراً .

وكيف يمكن الاستدلال بحديث يرويه راو ليس بالقوي يخلط ويوهم كثيراً وينفرد بالمناكير عن المشاهير؟!.

ولو أننا نظرنا إلى المتن لوجدنا اضطراباً شديداً وخلطاً غريباً ، إذ بينا نرى الحديث ينسب إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه يأمر الرجل بأن يناجي الله تعالى ويسأله ويتوجه إليه ، نراه من جهة أخرى ينسب إليه أنه يأمره أن يخاطبه هو ويدعوه بقوله : يا محمد . وكيف يأمره النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما نهى الله عنه ، فالله تعالى يقول : «فَلاَ تَدْعُو مَعَ اللهِ أَحَداً»[1] ، هذا بينما نراه يقول:

---

(١) سورة الجن : ١٨ .

اللهم إني أسألك إذا به ينصرف عن الله ويقول : يا محمد . فأين العقول ؟؟ .

* * * *

ثم مَنْ هذا الضرير الذي جعله الله مظهراً لهذه الآية الكبرى ؟ .

رجل يأتي النبي ضريراً قد ذهب بصره ويسأله الدعاء فيأمره النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتوضأ ويصلى ركعتين ويدعو الله بدعاءٍ يعلمه إياه فيرتد بصيراً ، ثم يظل نكرة لا يعرفه أحد ، ويبقى اسمه مجهولا عند المسلمين كافة ، وهم لا يزالون يتحدثون بردّ عين قتادة وشفاء عين عليّ ، فما لهم لا يذكرون هذا الذي أبصر من بعد العمى ، وعاد إليه بصره بعد أن كان يتخبط في الظلمات .

وبعد فلو سلمنا أن الحديث صحيح سنداً ومتناً فهو بنجوة عن التوسل بالأشخاص ، فإن الرجل ما جاء إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا ليدعو له ، وقد خيره الرسول فأبى إلا الدعاء ، فكأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمره أن يسأل الله أن يستجيب لـه دعاءُ النبي ـ صلى الله عليه

وسلم ـ والأمر لم يخرج عن حدود التوسل بدعاء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حياته وذلك لا شك في جوازه، بل والتنافس فيه .

قل للذين يجادلون في الحق بعد ما تبين (الحق احق ان يتبع فليس بعد الحق الا الضلال قال) الله تعالى : « فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ ، إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ »[1] .

---

(١) سورة القصص : ٥٠ .

احاديث الاستسقاء

قال الإمام البخاري : حدثنا قتيبة بن سعيد ، قال : حدثنا إسماعيل بن جعفر عن شريك عن أنس بن مالك ، أن رجلا دخل المسجد يوم جمعة من باب كان نحو دار القضاء ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائم يخطب . فاستقبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائماً ، ثم قال : يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا فرفع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يديه ثم قال : اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ، قال أنس : ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة ، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار ، قال : فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس ، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت ، فلا والله ما رأينا الشمس ستاً . ثم دخل رجل من ذلك الباب ، في الجمعة ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائم يخطب ، فاستقبله قائماً ، فقال : يا رسول الله ، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يمسكها عنا ، قال : فرفع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يديه ثم قال : اللهم حوالينا ولا علينا ،

اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية . ومنابت الشجر ، قال : فأقلعت ، وخرجنا نمشي في الشمس . قال شريك : سألت أنس بن مالك : أهو الرجل الأول ؟ قال : ما أدري .

* * * *

ألهمك الله الإنصاف ، وجنبك الاعتساف ، ووفقك إلى الحق عند الاختلاف .

قد تقول : إن هذا الرجل استسقى بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكي ينزل الله المطر .

أجل ، ولكن ماذا ؟ أتراه استسقى بذاته ، أم بدعائه ؟.

هل أقسم على الله تعالى به ؟

ألم يقل : يا رسول الله ، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يغيثنا .

أطلب من الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما لا يملك ؟.

أقال له : أغثنا أدركنا يا رسول الله ؟ ، أم عرف الحق لأهله ، وقال للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ : أدع الله

يغثنا ؟ فاسأل من شئت من الناس أن يدعو لك ، وخلّاك ذمّ .

ولعل هذا الحديث يرشدك إلى الاستسقاء كيف كان ، وإلى الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كيف كانوا يستسقون .

قال الإمام البخاري : حدثنا الحسن بن محمد ، قال : حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري ، قال : حدثني أبي عبد الله بن المثنى عن ثمامة بن عبد الله بن أنس أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان إذا قحطوا استسقى بالعباس ابن عبد المطلب ، فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقنا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، قال: فيسقون.

كيف كانوا يتوسلون بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

الجواب في الحديث السابق ، إذ كانوا يأتون إليه ، ويسألونه أن يدعو الله لهم ، فيدعو فيسقيهم الله تعالى .

وما معنى توسلهم بالعباس ؟ : معناه أنهم يسألونه أن يدعو الله لهم كما كانوا يسألون النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حياته .

ونستطيع أن نفهم من هذا الحديث الشريف أنه لو كان الالتجاءُ إلى القبور سائغاً ما تركوا قبر النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو منهم قريب لا يكلفهم رحلة ولا سفراً ولا عناءً.

فهذا عمر بن الخطاب وهو من أغير الناس على دين الله ومن أحب الناس إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومن أعلم الناس بحلال الأمر وحرامه يقول : كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، أي يوم كان عليه الصلاة والسلام بين ظهرانينا يدعو لنا ويستسقي ، أما وقد انتقل إلى الرفيق الأعلى فلا يتسنى لنا أن نسأله الدعاء والاستسقاء ، فها نحن أولاءُ نسأل عمه العباس وهو من أقرب الناس إليه ، وأمسهم رحماً به أن يدعو لنا بالسقيا .

فمعنى نتوسل إليك بنبينا يساوي : نسأله أن يدعو لنا ، كما فعل الرجل الذي جاء النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو يخطب .

* * * *

ومعنى نتوسل بعم نبينا ، نسأله كذلك أن يدعو لنا .

هذا هو معنى التوسل في هذا الحديث الشريف الذي فتن به كثير من الناس وظنوا أن المراد به الإقسام على الله تعالى بخلقه ، ولو كان ذلك حقاً ما تقاعسوا عن الإقسام برسول الله ، ولكنهم لم يفعلوا لأنهم أعلم الناس بما يجوز وما لا يجوز .

دع ما يريبك

أليس من الخير أن يتبع المسلمون الأمر الواضح الصريح الذي لا يتسرب إليه الشك ، وأن يجتنبوا ما دارت حوله الأقوال واختلف فيه الناس ، والرسول الأمين - عليه الصلاة والسلام - يقول لنا : (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك) .

ودعاءُ الله تعالى ، والتوجه إليه ، والإقسام عليه بأسمائه وصفاته والتوسل إليه بصالح العمل ، كل ذلك لم يختلف فيه أحد .

أما التوسل بالمخلوقين ، والإقسام على الله بهم ، فقد اختلف الناس في جوازه - وما كان ينبغي لهم أن يختلفوا - فما لنا لا نستمسك بالقول الثابت الذي لا خلاف فيه ، وهو الأحوط ، والأسلم الذي لا يلحقنا منه وبال إن اقتصرنا عليه ، ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم .

زيارة القبور

نهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أول الأمر عن زيارة القبور ؛ لأن الناس كانوا حديثي عهد بكفر ، ولأن القبور كانت منشأ الوثنية الأولى ، فقد كان الناس إذا مات الرجل الصالح منهم صوروا فوق قبره صورة وتعهدوا قبره بالزيارة إثارة لذكرى نصحه وإرشاده وتعليمه ، ثم تحول هذا بمرور الزمن إلى عبادة للصور والتماثيل .

فلما رسخت أصول الإيمان في قلوب المؤمنين أباح لهم زيارتها ، بل دعاهم إليها ؛ لتذكرهم بالموت ، وتقلل من تكالبهم على الحياة الدنيا ، وتطاحنهم على أعراضها الفانية .

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : (كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها) وفى روايه دفانها تذكركم الاخره.

ولكنه لم يبحها للنساء لرقة إحساسهن ، ورقة شعورهن وحدّة عواطفهن ، فزيارة القبور تثير في أنفسهن ذكرى

الراحلين ، فتشتد أحزانهن ؛ وربما سخطن على الأقدار ، ولم يرضين بقضاء الله تعالى وقدره .

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : (لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج) .

زيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام

الصلاة في مسجد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، ولا تشد الرّحال إلا إليه وإلى المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، هكذا ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأبي سعيد ، فإذا وفقت إلى دخول مسجده ـ صلى الله عليه وسلم ـ فابدأ برجلك اليمنى ، وقل : باسم الله والصلاة والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب رحمتك ثم ائت الروضة بين المنبر والقبر فصلّ بها وادع بما شئت ، ثم ائت القبر الشريف فاستقبله ولا تمسه ، ولا تقبله ، وقل : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، السلام عليك يا نبي الله وخيرته من خلقه ، السلام عليك يا سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، وقائد الغر المحجلين ، أشهد أن لا إله إلا الله ؛ وأشهد أنك رسول الله ؛ أشهد أنك قد بلغت رسالات ربك ؛ وأديت الأمانة ، ونصحت لأمتك ، ودعوت إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وعبدت الله حتى أتاك اليقين ، فجزاك الله أفضل ما جزى نبياً رسولا

عن أُمته ، اللهم آته الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ليغبطه به الأولون والآخرون ، اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم احشرنا في زمرته ؛ وتوفنا على سنته ، وارزقنا شفاعته ، وأوردنا حوضه واسقنا بكأسه شربة لا نظمأ بعده أبداً .

ثم انقل قدميك الى اليمين مرة وقل : السلام عليك يا أبا بكر الصديق . السلام عليك يا عمـــر الفاروق . السلام عليكما يا صاحبي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وضجيعيه ورحمة الله وبركاته ، جزاكما الله عن صحبة نبيكما وعن الإسلام خيراً ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار .

ثم زر قبور أهل البقيع وقبور الشهداء إن تيسر لك ، وقل كما كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول عند زيارة القبور : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم

والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية ، اللهم لا تحرمنا أجرهم ، ولا تفتنا بعدهم ، واغفر لنا ولهم » .

وكذلك تفعل في زيارة سائر قبور المسلمين .

ولا ينبغي أن يطلب العبد من أصحاب القبور شيئاً . فقد صح عن ابن عمر - رضي الله عنهما - إنه إذا دخل الحجرة زائراً قال : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام عليك يا أبي ، ثم ينصرف ولا يزيد على ذلك شيئاً ، ولا يطلب من سيد العالمين ولا من ضجيعيه شيئاً وهم أكرم من ضمتهم البسيطة .

ولم يؤثر عن النبي ولا عن خلفائه الراشدين أنهم قرأوا شيئاً من القرآن عند القبور ، فما أحسن الاقتداء بهم والسير على منهاجهم .

نداء الأولياء ودعاؤهم

ترى كثيراً من الناس إذا وقعوا في شدة من الشدّات ، أو تعلقت أنفسهم برغبة من الرغبات ، يهتفون بأسماء يظنون أن أصحابها قادرون على إنقاذهم مما هم فيه من شدة ، أو إظفارهم بما تطمح إليه قلوبهم من رغبة فيقولون : يا بدوي ، يا دسوقي ، يا بيومي ، يا رفاعي ، يا جيلاني ، يا عمي يا شيخي . إلخ كما يفعلون كذلك في كل قومة وقعدة وحركة وسكون ، فهل هذا جائز شرعاً ؟ .

تجد الجواب في قوله تعالى : « لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ »[1] ، ومعناه أن الدعاء الحق الخليق بالاستجابة ما كان موجهاً إلى الله القدير – تعالى شأنه – وتقدست أسماؤه . وأما ما كان موجهاً إلى غيره فهو باطل ذاهب في الهواء ، طائر مع الريح ، لا يلقى استجابة ولا يظفر بقبول

---

(١) سورة الرعد : ١٤ .

وكيف يتقبل الدعاء ويستجيبه من لا يقدر على استجابته وليس في وسعه قبول ولا رد ؟ .

تصور ظامئاً أحرق الظمأُ كبده ، وقف على شاطئ نهر وبسط كفيه إلى الماء ودعاه ليبلغ فاه ، أفتراه يبلغه ويرويه ؟ كلا ، ما هو ببالغه . بل يقتله الظمأُ قبل أن يظفر بجرعةِ ماء تبلّ أوامه ، أو قطرة تشفي غليله .

وفي قوله تعالى : « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ »(١) .

وفي قوله تعالى : « وَيَاقَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ . تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ . لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ، وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ ، وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ. فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ ، إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ»(٢).

---

(١) سورة الأحقاف : ٥ ، ٦ . (٢) سورة غافر : ٤١ – ٤٤ .

وفي قوله تعالى : « قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ، قُلْ : إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى ، وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »(١) .

وفي قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »(٢).

وفي قوله تعالى : « وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ »(٣) .

وفي قوله تعالى : « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ فَلاَ تَدْعُو مَعَ اللهِ أَحَداً »(٤) .

وفي قوله تعالى : « قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ ، فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ، وَيَرْجُونَ

---

(١) سورة الأنعام : ٧١ .
(٢) سورة الأعراف : ١٩٤ .
(٣) سورة يونس : ١٠٦ .
(٤) سورة الجن : ١٨ .

رَحْمَتَهُ ، وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً »[1].

وفي قوله تعالى : « وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، كُلُّ شيءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَـهُ ، لَهُ الْحُكْمُ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »[2].

وفي قوله تعالى : « قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ، أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ؟ قُـلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ »[3].

وفي قوله تعالى : « يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ . يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ »[4].

وفي قوله تعالى : « ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ »[5].

---

(١) سورة الإسراء : ٥٦ ، ٥٧ .
(٢) سورة القصص : ٨٨ .
(٣) سورة الزمر : ٣٨ .
(٤) سورة الحج : ١٢ ، ١٣ .
(٥) سورة الحج : ٦٢ .

وفي قوله تعالى : « ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ، فَالْحُكْمُ للهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ »(١).

وفي قوله تعالى : « وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ »(٢).

وفي قوله تعالى : « وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ »(٣).

وفي قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَايَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ والْمَطْلوبُ . مَـا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ »(٤).

وفي قوله تعالى : « فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ »(٥).

---

(١) سورة غافر : ١٢ .
(٢) سورة الزمر : ٤٥ .
(٣) سورة المؤمنون : ١١٧ .
(٤) سورة الحج : ٧٣ ، ٧٤ .
(٥) سورة غافر : ١٤ .

فإذا تأملت هذه الآيات البينات تأمل منصف يريد الظفر بالحق ، والهداية إلى الصراط المستقيم ، كانت كافية كل الكفاية لإقناعك بأنه لا يجوز دعاء الأولياء : إذ الدعاء لا يكون إلا لمن ترجى عنده الإجابة ، ولا يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء إلا الله وكل من سوى الله لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً .

وما حرّم الله دعاء غيره إلا لأن الدعاء نوع من أنواع العبادة والعبادة لا تكون إلا لله تعالى .

وقد جاء في الحديث الشريف : (الدعاءُ هو العبادة) ، وورد أيضاً : (الدعاءُ مخ العبادة) .

وحسب المؤمن أن يتلو الآيات السابقات ، ويتدبرها لينصرف بكل قوى نفسه عن غير الله تعالى ، ويقبل عليه ـ عزشأنه ـ ويدعوه وحده مخلصاً له الدين حنيفاً .

مثال

« يوضح دعاء الله ودعاء غيره »

هبك سائراً في البادية ، فعدا عليك سبع ضار ، وليس معك سلاح تذوده به عن نفسك . فإن توجهت إلى ربك بقلب خالص وقلت : اللهم نجني من شره ، واصرفه عني ، واكفني أذاه وتداركني برحمتك . كان هذا دعاء لله تعالى .

وإن قلت : يا فلان أغثني ، أدركني ، أنقذني ، وذكرت أحد الموتي ، أو أحد الأحياء البعيدين عنك الذين لم تجر العادة أن تسمعهم صوتك من مكانك الذي أنت فيه ، كان ذلك دعاء لغير الله تعالى ، وكان شركاً قبيحاً ، نعوذ بالله تعالى منه ، لأنك نسبت إلى غير الله علم الغيب ، والقدرة على إنقاذك بغير سنن الله التي لا تتحول ولا تتبدل .

ولكنك لو دعوت إنساناً قريباً منك ، ليعينك على الخلاص من أذى هذا السبع ، بسلاحه أو بأداة جرت العادة أن يدفع الناس بمثلها عن أنفسهم ، فلا جناح عليك ، لأنك لجأت إلى الأسباب التي أمر الله باتخاذها ، ودعوت صاحبك إلى معونتك والله تعالى يقول : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى »[1] .

---

(١) سورة المائدة : ٢ .

أيصح الجزم بولاية بعض الأفراد

أما الذين وعدهم الله الحسنى ، وأما الذين بشرهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالجنة ، فاجزم بولايتهم ولا سبيل عليك .

وأما من عداهم فما يدريك ماذا كانت عاقبة أمرهم ؟.

وواجبك أن تحسن الظن بهم ، وأن ترجو لهم الخير .

برهان ذلك ما رواه الإمام البخاري في صحيحه ، قال: حدثنا سعيد بن عفير ، حدثني الليث ، حدثني عقيل ، عن ابن شهاب ، أخبرني خارجة بن زيد بن ثابت أن أم العلاء ـ امرأة من الأنصار ـ بايعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبرته أنهم اقتسموا المهاجرين قرعة . قالت : فطار لنا عثمان بن مظعون ، وأنزلناه في أبياتنا ، فوجع وجعه الذي توفي فيه ، فلما توفي وغسل وكفن في أثوابه دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله ؛ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وما يدريك أن الله

أكرمه ؟ فقلت : بأبي أنت يا رسول الله ، فمن يكرمه الله ؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أما هو فقد جاءه اليقين ، والله إني لأرجو له الخير ، ووالله ما أدري وأنا رسول الله ماذا يفعـــل بي . قالت : فوالله لا أزكي بعده أحداً أبداً .

هذا صحابي جليل ، هاجر مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واحتمل فراق الأهل والوطن في سبيل الله ، وتشهد له صحابية بأن الله أكرمه ، فيسألها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منكراً عليها هذه الشهادة ، فتقسم ألا تزكي بعده أحداً أبداً .

هذا ونحن نشهد بالولاية لكل أبله ، ومعتوه ، ومجنون ولكل من ارتفعت فوق قبره قبة ، ووضع فوقه تابوت كسي بالثياب والأستار والعمائم ، وحفت من حوله مقصورة ألصق بها صندقٌ للنذور .

ألا : فلتهدم هذه القباب إجابة لأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي يقول : (اذهب فلا تدع قبراً مشرفاً إلّا سويته) .

ألا فلتحطم هذه الأصنام التي تدعى من دون الله ، ألا فلتعط هذه الثياب للفقراء ، الذين لا يجدون ما ينفقون ، فليدفعوا بها عن أنفسهم غائلة البرد .

لقد افتن الناس في إقامة هذه القباب ، واتخذها وسيلة من وسائل العيش . فكم سمعنا أن إنساناً سدت في وجهه سبل العيش ، فعمد إلى سعفة خضراء ؛ غرزها في بقعة ثم أشاع في الناس أن فلاناً الولي جاءه في النوم وأمره أن يبني له مقاماً ، ويتسامع الناس ، وسرعان ما يشيد الضريح ثم يتخذ معبوداً يدعى ويهتف باسمه ، وينذر له ، وتشد إليه الرّحال ، والله يعلم أنه ضريح مبني على أرض فضاءٍ لا قبر فيها ، ولا رفات تحتها .

وكم سمعنا أن خبيثاً أراد أن يملك قطعة من أرض الدولة ، فبنى عليها ضريحاً وغرس بجواره نخلا ، وادعى أن هذه الأرض لهذا الولي . وإذا مضت القبة صعداً في السماء ورآها الناس ، أتوها من كل حدب ينسلون ، وحجوا إليها من كل فج عميق .

وكم تفكه الناس بأقصوصة الشريكين اللذين مات

لهما حمار فدفناه ، وأقاما على رمته ضريحاً ، ورفعا فوقه قبّة شاهقة ، وأذاعا في الناس من أخبار كراماته وأسراره ما أغراهم بزيارته ، والنذر له ، والحلف به .

فلما اختلفا في أمر من الأمور طلب أحدهما إلى الآخر أن يحلف (بالشيخ) فضحك صاحبه وقال العجب لك ؟ كيف أحلف به وقد دفناه معاً ؟ !.

هذه الحال التي انغمس فيها المسلمون دفعت أحد أعداء الإسلام إلى هذا القول الأليم (إن المسلمين يزعمون أنهم موحدون ، ولهم في كل بلد ألف إله يعبدونه) إنه بلا شك يعني هذه القباب الكثيرة التي يقف أمامها المسلمون خاشعين أذلاء يضرعون إليها في حاجاتهم ، ويستدفعون بها الشرور ، ويستجلبون بها الخير ، وما هي من هذا كله في ظل ولا في .

العالم الباطن

أرسل الله تعالى رسوله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالهدى ودين الحق ، وأنزل عليه كتاباً كريماً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأمره أن يبلغ ما أنزله إليه بقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ »[1] ، وأخبر تعالى بأنه أنزل الذكر على رسوله ليبينه للناس ، فقال تعالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ »[2] .

وأخص الصفات التي يجب على المكلفين جميعاً أن يعتقدوا وجوب اتصاف الأنبياء بها ؛ التبليغ ؛ كما أن أخص الصفات التي يجب اعتقاد استحالتها عنهم : الكتمان . فكل مكلف مطالب إذاً بأن يعتقد أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلغ جميع ما أنزل إليه من ربه لم يكتم منه حرفاً واحداً ، ولم يختص أحداً من صحابته

---

(١) سورة المائدة : ٦٧ .　　(٢) سورة النحل : ٤٤ .

ولا من أهل بيته بشيءٍ كتمه غيرهم . بل أتم الله دينه ، وبلغه رسوله للناس كافة ، لأنه مرسل إلى الناس كافة ، قال تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً ونذيراً ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ »(١) .

ولكن فريقاً من الناس يزعمون – وويل لهم ما يزعمون – يزعمون أن النبي – صلى الله عليه وسلم – أودع علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – نوعاً من العلم ، يغاير هذه الشريعة الظاهرة البينة ويسمى (العلم الباطن) اختصه به من دون سائر المسلمين ، ثم علمه عليّ لبعض أبنائه ، ثم أصبح أفراد من أحفاده وشيعته يتوارثونه جيلا فجيلا ، ويزعمون أنه سر من الأسرار لا يطلع عليه إلا الواصلون الذين تلقوا العهد على شيخ من الشيوخ الواصلين .

وقد يسمون هذا العلم « الحقيقة » ويقابلون به الشريعة فيقولون : فلان من أهل الحقيقة ، وفلان من أهل الشريعة ويزعمون أن أهل الشريعة ليسوا على شيءٍ ، ولا يعرفون من العلم إلا ظاهره ، وأن أهل الحقيقة هم أهل العرفان ، وهم

---

(١) سورة سبأ : ٢٨ .

الذين أُوتوا حقيقة العلم وباطنه ، وهم الواصلون ، وهم المقرّبون ، وهم المطلعون على الغيب ، وهم أهل التصرف في الكون .

مزاعم لعمر الحق باطلة ، وأوهام كاذبة ، وخدع مضلة وأباطيل مغرية ، واتباع لخطوات الشيطان ، واتباع للسبل المغوية التي تتفرق بسالكها عن سبيل الله ، وتفضي به إلى سوء المصير .

قوم كانوا يطلبون الدنيا فعــز عليهم طلابها ، وشق عليهم الظفر بها ، وعجزوا عن نيلها من سبلها المشروعة ، فالتمسوها من طرق ملتوية غامضة شائكة ، وراحوا يدلسون على الناس ليخدعوهم ويوقعوهم في حبائلهم ، حتى ينحدروا إلى عقولهم فيفسدوها ، وإلى جيوبهم فيستأثروا بما فيها ، باسم الدين ووراء أستاره ، والله يعلم أن الدين منهم براء .

كان من أثر هذا السفه الذي سموه علماً باطناً وحقيقة وطريقة ، أن شرع شيوخهم لمريديهم من الدين ما لم يأذن به الله . وسلبوهم حريتهم وإرادتهم ، وجعلوهم بين أيديهم كالريشة في مهب الرياح الهوج .

قالوا لهم : على المريد أن يكون بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل ، يقلبه كما يشاءُ ويريد ، وهو لا يبدي حراكاً ، فلا يقدم على ظعن ولا إقامة ، ولا يفكر في تجارة ولا صناعة ولا زراعة ولا يحاول زواجاً ولا طلاقاً ، ولا يزاول عملا من الأعمال دق أو جل إلا من بعد أن يأْذن له الشيخ ويرضى .

وقالوا : على المريد أن يعتقد أن ما أصابه من خير فببركة الشيخ ، وما مسّه من سوءٍ فبغضب الشيخ .

وقالوا : على المريد أن يعادي من عاداه الشيخ ، ولو كان من الأبرار الصالحين ، وأن يصادق من صادقه الشيخ ، ولو كان من الأشرار المفسدين .

وقالوا : على المريد إذا جلس يذكر الله أن يستحضر في ذهنه صورة الشيخ .

وقالوا : لا ينبغي للمريد أن يعترض على الشيخ ولو رآه يأْتي المنكر ، ويجترح كبائر الإثم والفواحش .

وقالوا .. وقالوا .. وبئسما قالوا ؛ وويل لهم مما قالوا .

يا لله للإسلام . . يا لله للمسلمين .

ما هذه النكبات التي نزلت بالناس فزلزلت إيمانهم ؛ وهوت بهم من علياء مجدهم ، وأرغمت أنوفهم وأذلتهم لأعدائهم ، وفرقتهم شيعاً وأحزاباً ، وجعلتهم طرائق قدداً .

ما هذا التشريع الفاسد الذي يقتل الفضائل الإنسانية ، ويزهق روح الحرية والصراحة والشجاعة ، ويدفع إلى التواكل والتخاذل ، ويجر إلى التفرق والاختلاف والتباغض وهي معاول تهدم بنيان الأمّة ، وتدك صروح مجدها .

ألم يسمعوا قول الله تعالى : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ »(١)

ألم يتلوا قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيءٍ ، إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ »(٢) .

أينتظرون تفرقاً في الدين أشنع من هذا التفرق ، وقد

---

(١) سورة الشورى : ١٣ . (٢) سورة الأنعام : ١٥٩ .

أصبحوا فرقاً شتى يعادي بعضهم بعضاً ، ويطعن بعضها في بعض ؟ .

يا قوم : اتقوا الله في دينكم ، واجتمعوا على الحق والهدى ، ما هذه الأسماءُ التي سميتموها فتفرقت بكم عن دين الله ؟ .

لم لا تكونوا إخواناً معتصمين بحبل الله جميعاً ، غير متفرقين ، والله سبحانه يقول : « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا »(١) .

يا قوم : هما أمران : حق وباطل ولا ثالث لهما .

فإن كنتم تعتبرون ما أنتم عليه مما يخالف الشريعة (حقيقة) فما رأيكم في الشريعة وأنتم تعلمون أن الحق الواحد لا يتعدد ؟ .

يا قوم : إن الشريعة هي الحقيقة وهي الطريقة ، فاستمسكوا بها ودعوا الترهات والأباطيل .

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٣ .

احفظوا نصوص الشريعة تكونوا من أهلها ، ونقبوا عن معانيها وأسرارها تكونوا من أهل الحقيقة ، واذكروا قوله تعالى: « وَأَلَّو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً »[1].

فهل تظنون هذه الطريقة شيئاً غير ما أنزل الله ؟ .

يا قوم : الحق أحق أن يتبع وليس بعد الحق إلا الضلال .

وارحمتاه للمسلمين ؟ أعرضوا عن الحق واتبعوا أهواءهم فأذل الله أعناقهم ، وثل عرشهم وأذاقهم النكال ، وبدّلهم من بعد أمنهم خوفاً ، ومن بعد عزّهم ذلاً .

أي شيطان رجيم زين لهم هذا السفه الذي سموه رشداً ، وهذا الضلال الذي دعوه هداية ، وهذا البهتان الذي اعتبروه حقيقة ، حتى تمرّغوا في حمأة الباطل وتلوّثوا بردغة المنكر ، وضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ؟ .

ما هذا العلم الذي ينادي بإغفـــال أول فضيلة من

---

(١) سورة الجن : ١٦ .

فضائل الإسلام : فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ تلك الفضيلة التي كان المسلمون بها خير أمة أُخرجت للناس قال تعالى : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ »(١) .

كيف لا ينكرون على الشيخ إن رأوه يأتي المنكر ، ويجترح السيئات وقد أمرهم الله ورسوله بالإنكار عليه وعلى غيره . قال تعالى: « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »(٢) .

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

كيف لا ينكرون على الشيخ إن رأوه أن يأتي المنكر وهم يعتقدون أنه ليس بمعصوم ؟ .

لقد كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يراجعون

---

(١) سورة آل عمران : ١١٠ . (٢) سورة آل عمران : ١٠٤ .

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، إن رأوا منه ما تخفي عليهم حكمته ، وحسبك ما كان من عمر بن الخطاب يوم صلح الحديبية ، وما كان من الخباب بن المنذر بن الجموح يوم نزل المسلمون بدراً .

أفيأتي في آخر الزمان قوم يزعمون لأنفسهم العصمة ، ويفرضون على مريديهم ألا يعترضوا عليهم ولا ينهوهم عن منكر إن هم فعلوه ؟ .

تلك مبادئ خطرة تهدم الدين وتدك صروح الأخلاق ، وتقوّض دعائم النظام .

لقد سمعنا من أخبار هؤلاء الشيوخ ما تسْوَدُّ به الصحائف وتندى له الجباه .

سمعنا أن منهم من شيّد قصراً منيفاً من آجرّ حرام ، كان يسرقه له مريدوه بأمره في أخريات الليالي .

وسمعنا أن منهم من كان إذا انفض المرقص الذي يسمونه (ذكراً) يفرّق مريديه في وجوه الشر المختلفة :

فيأْمر فريقاً بإحراق ساقية ، ويأْمر فريقاً بتسميم ماشية ، ويأْمر فريقاً باقتلاع زرع . إلى غير ذلك من ألوان الجرائم التي يقترفونها تحت ستار الدين والناس عنهم غافلون .

فيا لله من هذا الفساد ؟ .

ولست أُحدثك عن الحملات المنكرة التي يوجهونها إلى القرى الآمنة المطمئنة . هذه الفيالق الضخمة من الأَتباع والمريدين العاطلين المتسكعين ، تنزل على القرى كما ينزل الجراد على المروج ، فلا يبقي ولا يذر . شيوخ يتقاضون العادات ، ومريدون يقيمون الحفلات الساهرات ، ويحيون الليالي المعلومات ، يملؤون البطون مما لذ وطاب من طيب الطعام ، ولذيذ الشراب ، ثم ينصرفون ويتركون القرية تئن تحت أَوكار الفقر ، وترزح تحت أَثقال الدين ، فوارحمتا لبيوت خربت ، وأُسر افتقرت .

ووا أَسفاه على عقار انتزعه من أَصحابه الدائنون ، وثروات أَضاعها الجهال والغافلون .

لقد سمعت أن قرويًّا اعتاد أَن يضيف هؤلاء الشيوخ حتى نضب معين ثروته ، نزلوا عليه ذات ليلة نزول القضاء

ولم يكن في بيته من حطام الدنيا شيء ، فسيء بهم وضاق بهم ذرعاً ، وحار في أمره ، ولم يدر ماذا يصنع . فسوّل له الشيطان أن يسرق ثوراً من الجيران ينحره ويهيئه لهم عشاء . وصدق المثل الذي يقول : يسمن كلب السوء في بؤس أهله .

لست أحدثك عن هذه الأمور وأشباهها ، فقد ذاعت وشاعت وأصبحت وقراً في كل أذن ، وقذى في كل عين ، وغصة في كل صدر . وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون .

ادماض

كيف يزعمون أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كتم الحق الذي أُنزل إليه من ربه عن المسلمين كافة ، ولم يفض به إلا الى عليّ – رضي الله عنه – خاصة وما أنزل الله دينه القويم ، وشرعه الحنيف ، ليكون وقفاً على طائفة من الناس دون طائفة ، فقد قال الله تعالى : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً »(١) . وقال تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً »(٢) .

وكيف يكتم رسول الله شريعة الله وما أُرسل إلا لتبليغها ، وهذا عليّ – رضي الله عنه – يعترف بفساد مزاعمهم ، وباطل دعواهم . فقد روى الإمام البخاري في صحيحه أن أبا جحيفة قال : قلت لعليّ : هل عندكم كتاب ؟ فقال : لا . إلا كتاب الله ، أو فهم أُعطيه رجل مسلم ، أو ما في هذه الصحيفة ، قلت : وما في هذه الصحيفة ؟ قال : العقل وفكاك الأسير ، ولا يقتل مؤمن بكافر .

---

(١) سورة الأعراف : ١٥٨ . (٢) سورة سبأ : ٢٨ .

فهو يعترف – رضي الله عنه – بأن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لم يخصهم بشيء وأن ليس عندهم علم مكتوب أو غير مكتوب ، إلا كتاب الله أو فهم أي علم هو أثر الفهم والاجتهاد ، وما في الصحيفة ، فليس عندهم إلا ما عند الناس ، والله سبحانه يختص بقوة الفهم من يشاء .

لقد كان أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – حراصاً على إذاعة الحق ونشره ما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، فراراً من لعنة الله التي أنذر بها الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى ، وعملا بقوله – عليه الصلاة والسلام – : « ليبلغ الشاهد الغائب ، فرُبَّ مبلغ أوعى من سامع) .

روى البخاري أن أبا ذر – رضي الله عنه – قال : لو وضعتم الصمصامة على هذه – وأشار إلى قفاه – ثم ظننت أني أُنفذ كلمة سمعتها من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قبل أن تجهزوا عليَّ لأنفذتها .

فهذا رجل من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يصرح بأنه لو وضع السيف على عنقه وعلم أنه يستطيع أن يفضي بكلمة من العلم سمعها من رسول الله

ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأفضى بها قبل أن يجهزوا عليه . فكيف يبيح عليٌّ وبنوه لأنفسهم كتمان علم تعلموه من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم أكثر الناس استمساكاً بدين الله ، وحرصاً على طاعة الله ورسوله ؟ .

ولعلك بعد ما قدمت لك من الأدلة المقنعة ، والبراهين التي تدحض تلك الأباطيل ، تجزم بأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما خصّ عليًّا ولا أهل بيته ولا شيعته بشيءٍ ، وما علَّمهم إلا ما علَّمَ سائر المسلمين . ولكن الناس يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون .

خدع

- ١ -

انخدع فريق من الناس بما كان بين موسى والخضر - عليهما السلام - وبما أتاه الخضر من خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار ، وظنوا أن ما فعله الخضر من قبيل ما هم فيه ، وأنه من العلم الباطن ، ولكن الظن لا يغني من الحق شيئاً .

جرت سنة الله في الأمم الخوالي أن يكون في عصر واحد أكثر من نبي واحد ، وأن يكون لكلٍّ شريعة خاصة ، فكانت شرائعهم تتحد في أصولها ، وهي الإيمان بالله واليوم الآخر ، والعمل بمكارم الأخلاق . وتختلف في فروعها من التكاليف المنوّعة .

كان موسى والخضر في عصر واحد ، وقد علَّم الله كلا منهما علماً لم يعلمه الآخر . كما في البخاري من حديث أبيّ بن كعب: (يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه) . وكلف كلا منهما تكاليف خاصة به لم يكلفها صاحبه .

كلف الخضر خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار الذي كان يريد أن ينقض ، ولم يكلف موسى شيئاً من هذا ، ونظر موسى في شريعته فإذا هي لا تبيح القتل ولا الإتلاف ، فلم يسعه السكوت على ما رأى ، مما لا يجيزه شريعته ، ولم يستطع الصبر عليه ، فاعترض ، وألح في الاعتراض ، وسأل وأمعن في السؤال ، حتى ضاق به الخضر وقال : هذا فراق بيني وبينك ، ثم نبأه بتأويل ما لم يستطع عليه صبراً .

الخضر نبي يوحى إليه ، بدليل قوله تعالى : « فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً »(١) ، وقوله تعالى : « وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي »(٢) .

أوحى الله إليه وأمره أن يفعل ما فعل ، فلم يسعه إلا أن يصدع بأمر ربه ، وينفذ ما كلّفه الله تعالى إيّاه لأمر يراد ، فكان ما فعله طاعة لله تعالى ، وشرعاً واجباً عليه تنفيذه ، لأنه مأمور به ، مكلف بأدائه ، ولكن موسى لم يكن يعرف

---

(١) سورة الكهف : ٦٥ . (٢) سورة الكهف : ٨٢ .

أن الخضر مأمور بذلك ، فلم يستطع عليه صبراً ، ورآه أمراً نكراً ، وشيئاً إمراً .

هذا وببعثة النبي – صلى الله عليه وسلم – انقطعت النبوات كلها إلا نبوته ، ونسخت الرسالات كلها إلا رسالته وبطل هبوط الوحي إلا عليه ، وانقطع نزول الشرائع إلا إليه ، وهو خاتم النبيين ، لم ينزل الوحي على أحد معه ، ولن ينزل على أحد من بعده إلى يوم القيامة ، فالنبي واحد ، والكتاب واحد ، والشريعة واحدة .

فإن زعم زاعم أنه يوحى إليه ، أو يؤمر بغير ما أمر به الشارع الحكيم . فهو إما مجنون لا يعي ما يقول ، وإما كافر مهدر الدم مطلول .

– ٢ –

ويزعم فريق أنه إذا تهذبت النفوس ، وسمت إلى حظيرة القدس لم تعد في حاجة إلى أن تتزكي بالتكاليف والعبادات فتسقط عنها ، ولا يجسر على ادعاء سقوط التكاليف إلا من خرج من حظيرة العقل أو من حظيرة الإيمان قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين .

وكيف نحكم بالطهر والقداسة والتهذيب على نفس نقضت عهد الله من بعد ميثاقه ، ولم تقف عند أمره ونهيه وتعدّت حدوده ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون .

وهل تبلغ نفس من الذكاء والطهر والقدس ما بلغته نفس الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – فهل سقطت عنه التكاليف ؟ .

كلاَّ ، فإن الله تعالى يقول له في كتابه الكريم : «وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ »(١) .

فقد أمره أمراً جازماً لا هوادة فيه بأن يستديم عبادته حتى يأتيه الموت ، فإن اليقين في الآية الكريمة هو الموت ، كما في القاموس المحيط .

اللهم إن هذه النفوس قذرة وخبيثة ، دنسة ، ملوثة بالمعصية ، بعيدة عن الرحمة لبعدها عن الإحسان .

فبطلت مزاعمهم الفاسدة ، ودحضت حجتهم الواهية الباطلة وبالله نعتصم ، وبكتابه نتأيد ، وما توفيقي إلا بالله .

---

(١) الآية الأخيرة من سورة الحجر .

الذكر

« الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ »(١).

أجل بذكر الله تطمئن قلوب المؤمنين ، وتنزل بها السكينة بعد زعج وقلق واضطراب .

بذكر الله تأْنس النفوس ، وتهدأ الأعصاب ، وتستريح الأرواح ، وتبرد الأكباد ، وتقرُّ العيون ، وتثلج الصدور .

ذكر الله دواءُ النفوس المريضة ، وشفاءُ القلوب القريحة والأكباد الجريحة ، وهداية الأرواح الحائرة ، وطمأْنينة الألباب الطاهرة .

ذكر الله عزاءُ البائسين ، وسلوى المحزونين ، وأمل المنكوبين .

وكيف لا تطمئن قلوب المؤمنين بذكر الله ، وهم يذكرون فضله العميم ، ورحمته التي وسعت كل شيءٍ ، وعطاءه الجزيل ، وعدله الذي قامت به السموات والأرض .

* * * *

(١) سورة الرعد : ٢٨ .

أفضل الذكر تلاوة كتاب الله ، وتدبّر آياته ، فهي زيادة الإيمان وقوة في اليقين .

فينبغي للمسلم أن يتلو القرآن كله مرة في كل شهر ، أي يتلو جزءًا كل يوم .

وما دام المسلم يتلو كتاب الله مرتلا له ، متدبراً لآياته فإنه يأخذ بيـــده إلى الصراط المستقيم ، الذي لا يضل سالكه ، ولا يشقى من اهتدى إليه .

ذلك بأن فيه تمجيد الله وتقديسه ، وتسبيحه ، وتوحيده والثناء عليه بجميع محامده .

وفيه من قصص الأولين ما يملأ النفس عبرة وذكرى ، وفيه من المثلات ما تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربهم ، وتوجل قلوبهم ، وفيه من توجيه الأنظار والأفكار إلى آيات الله وأدلة وحدانيته وبراهين قدرته ما يرد الطمأنينة إلى النفوس ، ويسوق اليقين إلى القلوب .

وفيه من ذكر الجنـــة ونعيمها ، وحورها وولدانها ،

وأشجارها وأنهارها ، وروحها وريحانها ، وطلحها المنضود ، وظلها الممدود ما يطير بالمؤمن شوقاً إليها .

وفيه من ذكر النار وعذابها ، وحميمها وقطرانها ، وسلاسلها وأغلالها ، وسعيرها وجحيمها ، وسرابيلها ومقامعها ما يملؤهم رعباً ويدفعهم إلى الفرار بأنفسهم من أهوالها .

وهو المعجزة الخالدة لخاتم النبيين ، وإمام المرسلين ، سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا تخلق جدته ، ولا تنفد عجائبه .

يتجدد مع الزمن إعجازه ، ولا تزال العقول تهجم منه على كنوز حكم وخزائن أسرار ، ولا ينضب معينها ، ولا تنقطع مادتها .

وهو الحكمة التي مَن أوتيها فقد أوتي خيراً كثيراً . وهو حجة الله على الخلق ، وهو البرهان ، وهو الهدي ، وهو النور ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الكتاب المبين الذي يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم .

والقرآن الكريم كله ذكر ، وأقصر سورة منه ذكر ، وأقصر آية منه ذكر . فمن لم يكن حافظاً فليتل فاتحة الكتاب ، ففيها حمد الله تعالى والثناءُ عليه ؛ وتمجيده ، وإفراده بالعبادة والاستعانة به وفيها الدعاءُ وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم . أو فليتل سورة الإخلاص فكلها ثناء على الله بما هو أهله .

ومن قصرت همته عن تلاوة القرآن فليختر من الذكر ما شاء ، فحمد الله ذكر ، والثناء عليه ذكر ، وتمجيده ذكر ، وتكبيره ذكر ، وتقديسه ذكر ، والتهليل ذكر ، والدعاء ذكر ، والابتهال إليه ذكر ، وسؤاله من فضله ذكر ، والتفكير في دلائل قدرته وآيات وجوده ووحدانيته ذكر ، فاختر لنفسك من ذلك ما يجلو صدأ قلبك ، ويزيل الغشاوة عن عين بصيرتك .

* * * *

وسبل الذكر التي يسلكها الذاكر ثلاث :

الأولى : أن يذكر الله بقلبه ولسانه ، أي أنه يردد

بلسانه ذكر الله وهو مفكر في معنى ما يقول ؛ وذلك أفضل الذكر وأرفعه قدراً .

الثانية : أن يذكر الله بقلبه بالتفكر في آلائه وآياته التي بثها في السموات والأرض .

الثالثة : أن يذكر الله بلسانه فقط وقلبه لاه ، وفكره ساه ، وذلك أضعف الذكر .

فجدير بالمؤمن الذي يحب معالي الأمور ، ويكره سفاسفها أن يسلك السبيل الأولى فيجعل لسانه رطباً بذكر الله ، وقلبه عامراً بتذكر آلائه ونعمه ، والفكر في معاني ما يتلو من الذكر ، ففي ذلك عون على تهذيب النفس وتطهيرها من أدرانها « إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ »(١) .

وهأنذا أُورد عليك جملة صالحة من أذكاره – صلى الله عليه وسلم – لتختار منها ما تشاءُ ، وكلها مما جاءَ في كتب السنَّة الصحيحة .

---

(١) سورة العنكبوت : ٤٥ .

جاء الفقراءُ إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلا والنعيم المقيم : يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ولهم فضل من أموالهم يحجون بها ويعتمرون ، ويجاهدون ويتصدقون . قال : (ألا أُحدثكم بما إن أخذتم به أدركتم من سبقكم ولم يدرككم أحد بعدكم ، وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه ، إلا من عمل مثل عملكم : تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين .

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول دبر كل صلاة مكتوبة : (لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) .

ومن أذكاره ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق ، ولقاؤك حق ،

والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت وعليك توكلت ، وبك آمنت وإليك أنيت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فا غفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت) .

ومنها : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسي سوءًا أو أجره إلى مسلم .

ومنها : اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك ، لك الحمد ولك الشكر .

ومنهـا : يا حي يا قوم ، برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين .

ومنها : اللهم إني أصبحت منك في نعمة وعافية وستر فأتمم عليَّ نعمتك وعافيتك وسترك في الدنيا والآخرة .

ومنها : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت عليك توكلت ،

وأنت رب العرش العظيم ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم ، أعلم أن الله على كل شيءٍ قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيءٍ علماً ، اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي وشر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم .

ومنها : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوءُ لك بنعمتك عليَّ ، وأبوءُ بذنبي فاغفر لي ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

ومنها : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ، والله أكبر .

ومنها : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم .

ومنها : اللهم إني أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائتك وجميع خلقك ، إنك أنت الله لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك .

ومن أدعيته ـ صلى الله عليه وسلم ـ : اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياى التي فيها

معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي من كل خير ، واجعل الموت راحة لي من كل شر .

ومنها : اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال .

ومنها : اللهم اجعل في قلبي نوراً ، واجعل في لساني نوراً ، واجعل في سمعي نوراً ، واجعل في بصري نوراً ، واجعل من خلفي نوراً ، ومن أمامي نوراً ، واجعل من فوقي نوراً ، واجعل من تحتي نوراً ، اللهم أعظم لي نوراً .

ومنها : اللهم اغفر لي وارحمني وعافني وارزقني .

شيء عجيب

هذه جملة صالحة من أذكار النبي - صلى الله عليه وسلم - وأدعيته ، حفظتها لنا كتب السنة وكلها خير ، فمن أخذ بشيء منها فقد وفق وهدي صراطاً مستقيماً ، وقد رأيت أنها جميعاً جمل تامة مما يسميه العرب كلاماً ، ليس منها لفظ مفرد ولا كلمة أعجمية .

والشيء العجيب أن الذكر في نظر الناس غير هذا كله ؟.

الذكر في نظرهم أن يجتمعوا في حلقة ويجأروا بأسماء مفردة لا تتم بها فائدة ولا يحسن السكوت عليها ، ولا تعد كلاماً في لغة العرب .

ليس فيها حمد لله ولا ثناءٌ عليه ولا تمجيد له ولا تقديس ولا تهليل ولا تكبير ، ذلك إلى ما بها من تحريف وسوء لفظ وفساد إلقاء ، وليتهم يتلونها في أنفسهم أو يخافتون بها ، بل يجهرون ويجأرون بأصوات منكرة ، وأنغام قبيحة ، تصطك لها المسامع ، وتنبو عنها الأذواق ، وتشمئز منها النفوس ، ويسمونها ذكراً والذكر منها براءٌ .

يـأمرنا الله تعالى أن نذكره الذكر الحق في أنفسنا ، فكيف بما لا يعد ذكراً ، ولا يعتبر كلاماً ؟ قال تعالى : « واذْكُرْ ربَّك في نفْسِك تَضرُّعاً وخِيفةً وَدُون الْجَهْرِ مِنَ الْقوْلِ بالغُدُوِّ وَالآصَالِ ولاَ تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِين »[1] .

وروى مسلم عن أبي موسى قال : كنا مع النبي – صلى الله عليه وسلم في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير ، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : « أيها الناس : أربعوا على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً بصيراً وهو معكم » .

هذا أمر الله العظيم ، وأمر رسوله الكريم ، ولكنهم لا يطيعون الله ولا يطيعون الرسول ولا يتبعون إلا ما توسوس به أنفسهم وتغري به شياطينهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . لشد ما بلغ الشيطان منهم مناه ، وأصاب فيهم غرضه ، وصدّق عليهم ظنه فاتبعوه .

وإنك لتدهش أشد الدهشة إذا رأيتهم وقد نفخ الشيطان

---

(١) سورة الأعراف : ٢٠٥ .

في أنوفهم ـ أرغمها الله ـ فقاموا على أقدامهم يترنحون ، تميس قدودهم كما تميس قدود الغيد الحسان ، ويميلون ذات اليمين وذات الشمال ، كما تميل الأغصان ، ويأتون بحركات نظمت على ألحان المنشدين ، وأنغام المغنين ، وكلما أمعن مغنيهم في ترديد عبارات الهوى والعشق والهيام الواصل والقرب اشتد نشاطهم وأسرعت حركاتهم ، فيالله منهم ؟ لشد ما شوهوا دين الله في نظر أعدائه وجعلوهم يرون الإسلام مهازل وألاعيب .

يالله . لشد ما لقي الإسلام من أهله ؟ لقد جنوا عليه أكثر مما جنى عليه أعداؤه ومبغضوه .

يالله للإسلام . أكمل الأديان وأتمها وأبقاها يشوّهه أولئك السفهاءُ بهـذه الألاعيب الصبيانية ، والحركات البهلوانية ، والأفعال الماجنة الخليعة ، يزعمون أن هذا من الدين ، فيالله للمسلمين ؟ .

بأي كتاب أم بأية سنة ترون سفهكم هذا ديناً وعبادة ؟ مَن أنبأكم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر بهذا المنكر الذي أنتم فاعلون ؟ .

حاش لله أن يأتي رسوله الكريم ذو الخلق العظيم والدين القويم أو يأمر بشيء من هذا النكر الأثيم .

من أنبأكم أن أصحابه المؤمنين الذين أنزل الله السكينة في قلوبهم ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم - استخفهم الشيطان فقاموا يتراقصون ويترنحون ؟ .

اتقوا الله يا قوم ، والزموا الحق واحرصوا عليه ، ودعوا هذه الألاعيب واجتنبوا تلك الأكاذيب ، وذروا أقوال الأفاكين الذين يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعلمون .

الحاد في أسماء الله

ومنهم الذين يهتفون بألفاظ ما أنزل الله بها من سلطان ويزعمون أنها من أسماء الله ، وأسماؤه تعالى توقيفية ، فلا يجوز لأحد أن يسميه تعالى بغير ما سمى به نفسه .

في أى آية من كتاب الله الكريم ، أم في أي حديث من أحاديث الرسول الصادق الأمين ، وجدتم أن « أه » من أسماء الله الحسنى ؟ .

يقول الله تعالى : « وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »(١) ، وأي إلحاد في أسماء الله أشنع وأفظع من أن يسموا ربهم بما لم يسم به نفسه ، ثم يزعمون أنهم يذكرون . ألا لعنة الله على الكاذبين .

وأعجب من هؤلاء من يعمدون إلى ألفاظ أعجمية مثل آهيا ، شراهيا ، أصباؤت آل شداي ، آج أهوج ، جلجلوت

---

(١) سورة الأعراف : ١٨٠ .

يتخذونها أوراداً ينفقون في تلاوتها ساعات من الليل والنهار ويزعمون أنهم يتقربون بتلاوتها إلى الله .

يا للعجب العجاب : هل ضاقت لغة القرآن فنعمد إلى هذا الهذيان ؟ .

أليس في لغة القرآن لنا غنية ، أليس في أسمائه الحسنى لنا مقنع ؟ .

هبوها أسماءً لله ـ تقدست أسماؤه ـ في العبرانية أو السوريانية ، كما تزعمون ، ألم تجدوا في لغة القرآن ما يغنيكم ؟ هل تظنون العبرانية أكرم على الله من العربية ، أم هل تحسبون أن أسماءه في لغة التوراة أحب إليه من أسمائه في لغة القرآن ؟ .

هل ذكرتموه تعالى بأسمائه التسعة والتسعين ، حين مللتموها وضقتم بها ذرعاً ، فأردتم أن تروّحوا عن أنفسكم بهذه البدع تتقربون به إلى ربكم ؟ لقد منتكم أنفسكم ضلالة وبهتاناً .

لو أنكم تلوتم آيات القرآن الكريم وتدبرتموها ووطنتم

النفس على العمل بما فيها لكان خيراً وأبقى ، ولكن أكثر الناس لا يعقلون .

ولو أنكم فكرتم في خلق السموات والأرض وما خلق الله من شيء فاهتديتم إلى آيات قدرته ، وأدلة حكمته ، لكان أنفع وأجدى ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون الحق فهم معرضون .

وهذا الشيطان يأبى إلا أن يفسد عليكم دينكم ، وأنتم تأبون إلا أن تلقوا إليه بالطاعة وأنتم عن كيده غافلون .

فانا لله وانا اليه راجعون .

خير مضاع

روى مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (مَن نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة . ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله به طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلانزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة وحفَّتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه) .

هذه ألوان من الخير فبأيها أخذ المؤمن نفعه الله تعالى ويلجون في الباطل الوقاح .

الأذان

شرع الله سبحانه وتعالى الأذان لإعلام المؤمنين بدخول وقت الصلاة ، ودعوتهم إلى أدائها .

وصيغته : الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، ثم يقول سراً : أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله (ثم يرفع المؤذن صوته فيقول) : أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، حي على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

وله صيغ أخرى لا تختلف عن هذه الصيغة إلا في أنها أقل منها في عدد الجمل ، وكلها صحيحة مروية عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكلها تنتهي عند قول المؤذن : الله أكبر الله أكبر ، لا اله الا الله .

والأذان بصيغته المعروفة منقول بالتواتر منذ شرع . وأذّن به المؤذنون ، وسمعه المسلمون في بلاد الإسلام جميعاً

في عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وفي عهد أبي بكر الصديق ، وفي عهد عمر بن الخطاب ، وفي عهد عثمان بن عفان ، وفي عهد عليّ بن أبي طالب – رضي الله عنهم جميعاً – وفي عصر الأُمويين ، وفي عصر العباسيين .

إلا أن الفاطميين ابتدعوا فيه بدعة وزادوا : (حي على خير العمل) ولكن صلاح الدين الأيوبي – جزاه الله عن السنة خيراً – قضى على هذه البدعة ، حين مكّن الله له في الأرض ، وعاد الأذان سيرته الأُولى ، وظل إلى سنة ٧٩١ هـ إحدى وتسعين وسبعمائة ، حين ابتدع أحد المفتونين زيادة : الصلاة والسلام .

وتستطيع أن تقرأ تاريخ الأذان في الجزء الأول من الخطط المقريزية لتقف على شيء من سيرة هذا الغوي الضليل وما أتى من الأكاذيب ليتذرع إلى خداع سلطان ذلك العصر ، حتى يأمر بإذاعة هذه البدعة .

لم أُرد أن أنقل لك ما جاء في هذا السفر من سيرة ذلك المبتدع لأني لا أُريد أن أغمس قلمي في هذا الرجس ولا أن ألوث صفحة من صفحات هذا الكتاب بنعوت هذا الأثيم .

وخطط المقريزي في المكتبات العامة ، وهي مبذولة لمن يشاءُ الاطلاع عليها .

حدثت هذه البدعة وشاعت بعد مضي ثمانية قرون من الهجرة النبوية في عصر المماليك ، عصر الجهل المطبق ، والظلام الدامس ، والظلم البيّن ، والاستبداد الغشوم ، ولم يستطع علماءُ ذلك العصر أن يجهروا بكلمة الحق خوفاً على أنفسهم من بطش الظالمين ، وحذراً من فتك المعتسفين ، فقنعوا أن يغيروا المنكر بقلوبهم ورضوا بأضعف الإيمان .

راجت هذه البدعة رواجاً ، وتجاوبت أصداؤها فوق ذوائب المآذن . ومن العجب أن المسلمين لو دعوا إلى إحياءِ سنة ما أقبلوا على إحيائها كما أقبلوا على إذاعة هذه البدعة .

ذاعت هذه البدعة واستمسك بها المسلمون ، كأنها سنة مؤكدة بل كأنها فرض محتم .

فلو دعوتهم إلى أن يحيوا سنة رسول الله وسنة خلفائه الراشدين ويرجعوا بالأذان إلى صيغته الشرعية ، ويقفوا به عند حدود ما شرع الله ، لتنكروا لك ، وقلبوا حماليقهم ورموك بكل منكر من القول وزور .

ثورة

دخلنا بعض المساجد لصلاة الظهـــر ، وحان الوقت ، فالتمس الناس المؤذن فلم يصيبوه ، فتقدمت إلى بعض إخواني أن يؤذن فأذن الأذان المشروع ، فثارت ثائرة الناس وفارت فائرتهم ، وأحدثوا في بيت الله ضجيجاً وعجيجاً ، وجلبة وضوضاء ، وأخذوا يثرون ويهضبون ، ويرغون ويزبدون ، كأنه أتى أمراً إدًّا ، أو جاء شيئاً منكراً ، أو اقترف شر الآثام ، أو اجترح أكبر الكبائر ، ثم أقيمت الصلاة وصلى الناس ثم خرجوا في صرة ، واجتمع عليهم السابلة . فإذا سألهم سائل : ما خطبكم ؟ قالوا : إن فلاناً أذَّن الأذان الشرعي ؟ .

ياللعجب !! إن كنتم تعترفون بأنه الأذان الشرعي ، فما هذه الضجة ؟ وما هذه الجلبة ؟ وما بالكم ثائرين وماذا تنقمون منه ؟ وهل الأذان الشرعي جريمة لا تغفر وإثم لا تسعه رحمة الله ؟ ! !.

ثم كان ما كان ، مما لست أذكره ولا أسطره ، ولعنة الله على من يبعث الفتن من مرقدها .

متى العلماء

لو أن الأمر وقف عند العامة ولم يعدُ عنهم لهان الأمر ، واحتمل الرزء ، وقلنا : قوم وجدوا آباءهم وأجدادهم على شيءٍ فظنوه حقاً ، وحسبوه سنة حسنة ، واعتبروه ديناً فهم به مستمسكون ولكن الذي لا يهون خطبه ، ولا تتحمل رزيئته أن فريقاً من العلماءِ سايروا العامة فيه . وأخذوا إخذهم ، وخاضوا فيما كانوا فيه خائضين ، وراحو يسلقوننا بألسنة حداد ، وينظرون إلينا شزراً ، تدور أعينهم كالذي يغشي عليه من الموت ، ويظنون في ديننا ، ويتهموننا آخر الأمر بأننا نحرم الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن دعتهم إلى نهش أعراض حرمها الله .

غرور

لقد غرّهم في دينهم ما افترى لهم بعض العلماء الذين لا يميزون السنة من البدعة ، فقد أفتى بعضهم بأن هذه الزيادة سنة ، وحجتهم أن الله تعالى يقول : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً »(١) .

قالوا : هذا أمر بالصلاة والسلام على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والأمر يقتضي الوجوب ؛ والوجوب يتحقق بمرة ، وما زاد عليها فسنة وهذا أمر مطلق ؛ ولم يقيد بزمان ولا مكان ولا حال ، فيصح الإتيان به في كل زمان وفي كل مكان وعلى كل حال .

سبحان الله !! ما هذا التفكير ؟ هذا الذي تقولون ، حكم مطلق ؛ الصلاة والسلام على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وليس بحكم الصلاة والسلام الملحقين بالأذان إلحاقاً يجعل عامة المسلمين يحسبون أنهما جزء من الأذان لا يتم إلا به ! ! .

---

(١) سورة الاحزاب : ٥٦ .

نسأل أولئك الذين يقولون هذا القول : أفهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هذه الآية الكريمة هذا المعنى الذي فهمتموه ؟ .

إذاً فما باله لم يأمر به مؤذنيه ؟ .

أم تقولون : إن تواضعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حال دون ذلك ؟ ، فهل يدفعه التواضع إلى كتمان الحق الذي أنزل الله ؟ .

وهل فهم الخليفة الأول أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ هذا المعنى الذي فهمتموه ؟ ، وهل فهمه الخليفة الثاني الفاروق عمر بن الخطاب ؟ ، وهل فهمه الخليفة الثالث ذو النورين عثمان بن عفان ؟ . وهل فهمه الخليفة الرابع عليّ بن أبي طالب ، ابن عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وزوج البضعة الطاهرة الزهراء البتول ؟ .

وهل فهمه أحد من الأئمة الأولين ، وعلماء القرون : الأول والثاني والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع ؟ .

إن كان كل أولئك قد فهموا هذا المعنى الذي فهمتموه من الآية الكريمة ، فما بالهم لم يأمروا به المؤذنين ؟ وما بالهم

جميعاً أخفوا هذا الحق وكتموه ، حتى قام ذلك الغر المفتون فأعلنه ، وطالب سلطان زمانه بنشره في البلاد ؟!!.

ياللعجب !! حقيقة دينية إسلامية تخفي على النبي - صلى الله عليه وسلم - وعلى الصحابة والتابعين وتابعيهم وعلى قرون كثيرة من بعدهم ، ثم تنجلي لهذا الأفّاك الأثيم !!.

لا يقول بذلك إلا من غبن رأيه ، وسفه نفسه ، وضل عن سواء السبيل .

وقال آخرون : بل هي بدعة حسنة . فنقول لهم : ليس في دين الله بدعة حسنة ، بل البدع الحسنة في العادات وفي أمور الدنيا ، كالإضاءة بالبترول ، والكهرباء بعد الاستصباح بالزيت والمشاعل ، وكاصطناع البرق والمسرّة والمذياع ، والاستواء على متن الطائرات ، وغير ذلك من ألوان الانتفاع بثمرات العقول ونتائج الأفكار من المخترعات والمبتكرات التي سخرها الله للإنسان لأمر يراد .

فهذه دنياكم ، ابتكروا فيها ما شئتم وابتدعوا ما أردتم واخترعوا ما أحببتم ولا جناح عليكم . ما دمتم واقفين عند حدود الله لا تتعدونها .

أما الدين فعليكم أن تقفوا به عند حدود ما أنزل الله على رسوله . فقد أتمه الله وأكمله من قبل أن يدعو نبيه الكريم إلى الرفيق الأعلى . فقال تعالى : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً »[1] .

ما أنزل الله إليكم ديناً ناقصاً لتكملوه ، وما نسي ربكم وما كان ربك نسياً .

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (إيَّاكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة) .

هذا قول فصل ، وليس بالهزل ، لم يدع مجالا لقائل .

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : (ما تركت شيئاً يقربكم من الجنة ويباعدكم من النار إلا أمرتكم به) .

فهل أمركم بهذه الزيادة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو لم يترك شيئاً يدنيكم من الخير ، ويقربكم

---

(١) سورة المائدة : ٣ .

من الجنة إلا أمركم به ؟ وهو الرؤوف الرحيم الذي يعز عليه عنتكم ، بشهادة القرآن الكريم ، قال تعالى : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ، بالْمؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ »(١) .

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « كُلُّ عَمل ليس عليه أمرنا فهو رد » أي مردود على صاحبه . فهل كان أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على هذه الزيادة ؟ .

وفي أي كتاب من كتب السنة الصحيحة أو السقيمة وجدتم هذا ؟ ، ائتوني بحديث واحد يشهد لكم أو أَثَارَةٍ من علم إن كنتم صادقين .

وإذا كان هذا العمل مردوداً عليكم غير مقبول منكم ، فما حرصكم عليه ، وفيم تعادون من ينهاكم عنه ؟ وما استمساككم بعمل لا يجدي عليكم خيراً ؟ .

قال إمام دار الهجرة مالك بن أنس ـ رضي الله عنه : من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة ، فقد زعم أن

---

(١) سورة التوبة : ١٢٨ .

محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ خان الرسالة ؛ لأن الله تعالى يقول : « يَا أَيُّهَا الرَّسولُ بَلِّغ مَا أُنْزلَ إليْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رسالتهُ »(١).

فهذا إمام جليل يشهد بأن من يزعم وجود البدعة الحسنة في الدين فقد أعظم الفرية على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

يا قوم : لسنا نجحد فضل الصلاة على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا ننكر ثوابها ، ولا نشك في أن الله تعالى أمر بها . ولكننا نريد أن تضعوها مواضعها ، لأن وضع الشيء في غير موضعه ظلم .

يقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (إذا سمعتم المؤذن ، فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علي) وهذه هي السنة ، فما بالكم تعرضون عنها ، ولا تستمسكون بها ؟ .

يدعو الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ جميع من سمع المؤذن أن يقول كما يقول ، ثم يصلي على النبي ـ صلى

---

(١) سورة المائدة : ٦٧ .

الله عليه وسلم – فجدير بمن يسمع الأذان من المؤمنين أن يطيع أمر النبي ، فيتابع المـؤذن في الذكر ويقول عند الحيعلتين : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم .

والمؤذن يسمع نفسه فليصل على النبي – صلى الله عليه وسلم – إذا فرغ ، ولكن يسر كما يسر سائر السامعين ، لأن الصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم – من الدعاء والذكر وقد أمرنا الله تعالى أن ندعوه تضرعاً وخفية . قال تعالى : « ادعوا ربَّكُمْ تضرُّعاً وخفية ، إنه لا يحبُّ المعْتدين ». وقد فسر المحققون من ثقات المفسرين الاعتداء برفع الصوت بالدعاء ، وقد قال تعالى : « وَاذْكُرْ رَبكَ في نَفسِك تَضرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْر مِنَ الْقَوْل بالْغُدُوِّ وَالآصَال وَلاَ تَكُنْ منَ الْغَافِلِينَ »[1].

وقد سن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأُمته خمسة

---

(١) سورة الأعراف : ٢٠٥ .

أنواع من الذكر عند الأذان ، فينبغي للمؤمن ألاَّ يفرط في جنبها ، فهي خير كلها :

أولها : أن يقول السامع كما يقول المؤذن إلا في لفظ حي على الصلاة حي على الفلاح ، فيستبدل بهما : لا حول ولا قوة إلا بالله .

ثانيها : أن يقول : (رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا) .

ثالثها : أن يصلي على النبي – صلى الله عليه وسلم – بعد فراغه من إجابة المؤذن ، وأكمل ما يصلى عليه به ما علمه لأُمته[1] .

رابعها : أن يقول بعد صلاته عليه : (اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد) .

خامسها : أن يدعو لنفسه بعد ذلك ويسأل الله من فضله.

---

(١) هو « اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم . وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد » .

هذه سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيها الخير كله ، فما للمسلمين يعرضون عن هذه السنة المباركة ، ويستمسكون بالبدعة التي لا تغني عنهم شيئاً ؟ .

وقال فريق : إن بلاد الاسلام قد اتسعت رقاعها ، وكثر عدد المسلمين وتشيعت مصالحهم ، وكثرت غفلتهم ؛ فأصبح لزاماً علينا أن نطيل الأذان ليسمع من لم يكن قد سمع ، وينبه من كان غافلا .

ونقول لهؤلاء القائلين : ما أشد جرأتكم على الله تعالى ! ! .

إن الله شرع الأذان وهو يعلم أن بلاد الإسلام ستتسع رقاعها ، وأن الإسلام سينتشر الانتشار كله ، وأن مصالحهم ستتشعب ، وأن غفلتهم ستعظم فلو علم أن الأذان الذي شرعه لا يكفي ولا يغني ، لشرع أذاناً آخر أوفى وأكفى ، ولكنه علم سبحانه أن الأذان الذي شرعه ليس في حاجة إلى مزيد ، وهو مغن الغناء كله .

ومن لم ينبهه الأذان الذي شرعه الله فلا انتبه ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ، ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب .

هذا ما قلناه ، ولكن الذين يفترون الكذب ويحرفون الكلم عن مواضعــه ، ويحبون أن يشيع السوءُ في المؤمنين قالوا : إنهم يحرمون الصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم – فهل يجد القارئ المنصف فيما قلناه تحريماً للصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم .

نضر الله وجه امرىءٍ قام بالقسط شهيداً لله . قال الله تعالى : « وسَيَعْلَمُ الَّذينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلبُونِ »[1] .

---

(١) سورة الشعراء : ٢٢٧ .

الجن

للناس مزاعم وأوهام وخرافات تدور حول الجن ، وكان من همنا في دروسنا أن نكافح الأوهام الباطلة ، ونجالد المزاعم الكاذبة ونقضي على الخرافات التي ليس لها أس تقوم عليه ، ولا أصل تستند إليه .

والناس حراص على عقائدهم الباطلة ، التي احتضنت طفولتهم ، ورافقت صباهم ، وسايرت شبابهم ، واستحوذت على كهولتهم ، فإذا حاولت أن تنتزعها منهم أو تردهم عنها ، قالوا مثل ما قال الأولون : « إنا وجدنا آباءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثارِهِمْ مُقْتَدُون »(١) .

أردنا أن نردهم إلى الحق من أمر الجن ، حرصاً على صبية الحاضر وشباب المستقبل أن تفسد تصوراتهم ، ويتسرب الخوف والجبن إلى نفوسهم ، فثار بنا أسرى الأوهام واتهمونا بأننا ننكر الجن . لبئسما قدمت لهم الجهالة أن أذاقتهم وبال أمرهم ، وجعلتهم يبوءُون بإثم ما رموا به إخوانهم المسلمين .

---

(١) سورة الزخرف : ٢٣ .

إن إنكار الجن كفر صراح ، لأنه تكذيب للقرآن الكريم الذي تحدث عنهم في مواضع شتى من سوره المحكمة وآياته البينات .

وهأنذا أوجز للقارىء الكريم ما ألقيته على الناس في دروسي لعل فيه تبصرة وذكرى لقوم يعقلون .

الجن خلق من خلق الله تعالى خلقهم من النار ، قال تعالى : « وَالْجان خلقْنَاهُ مِنْ قبلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ »[1] . وقال تعالى حكاية عن إبليس ـ عليه اللعنة ـ : « خلَقْتَني منْ نَارٍ » ، وقال تعالى : « وَخَلقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ من نارٍ »[2]

وهم من عالم الغيب ، يروننا ولا نراهم . قال تعالى : « إنَّهُ يَراكُمْ هُو وقبِيلُهُ منْ حيثُ لا ترونَهُمْ »[3] . هذا خبر الله ، وهو الحق الذي لا يأْتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : في بعض أدعيته : (اللهم إنك سلطت علينا عدواً بصيراً بعيوبنا ، يرانا هو

---

(١) سورة الحجر : ٢٧ .
(٢) سورة الرحمن : ١٥ .
(٣) سورة الأعراف : ٢٧ .

وقبيله من حيث لا نراهم) ، وهذا خبر الرسول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، وهما يدلان بعبارة نصهما على أن الجن يروننا من حيث لا نراهم ، والذين يزعمون غير ذلك يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويجادلون في الحق بعد ما تبين .

ومع هذا الحق الصريح الذي لا يرقى إليه الشك ، ولا تدب إليه الريبة ، نجد الناس يزعمون مزاعم لا يؤيدها عقل ، ولا يعضدها نقل ، يزعمون أن الجن يتمثل لهم في بعض الأمكنة في أشكال مختلفة ؛ فيتمثل لهم ناراً ، ويتمثل لهم حماراً ، ويتمثل لهم كلباً وقرداً ، ويتمثل لهم بشراً سوياً يكلمهم ويسايرهم ، إلى غير ذلك من المزاعم الباطلة ، والأوهام الكاذبة ، وحيثما توجهت سمعت أمثال هذه الحكايات ومن العجب أنك تجدها متماثلة في شكلها وموضوعها ، فالحكاية التي تسمعها في أسوان تسمع مثلها في الإسكندرية ، وتسأل المتحدث : هل رأيت ذلك أنت نفسك ؟ فيقول لك : لا بل سمعت ممن أثق به .

وتسأل أشخاصاً في أعمار متفاوتة ، من الصبي المراهق إلى الشيخ الهرم : هل رأيتم شيئاً مما يتحدث به الناس ؟ ، فما يكون جوابهم إلا أن يقولوا : لا ولكننا سمعنا . وإن ظفرت بمن يعترف بالرؤية وجدته إما تسعة أعشار أعمى لا يكاد يبصر ما تحت قدميه ، وإما مدمن مخدرات قد

فسد عقله وضعف إدراكه ، وأصبح لا يفرق بين الحقيقة والخيال ، وإما جباناً مستطاراً يخيفـــه الظلام ، وترتعد فرائصه إن سار وحده ، فإن سمع نبأة ملئ منها رعباً ، وإن رأى شبحاً أوجس منه خيفة ؛ وظنه عفريتاً يتربص به الدوائر ، ويبغي له الغوائل .

قل : أأنتم أعلم أم الله ؟ أأنتم أصدق أم الله ؟ إن الله تعالى يقول : « إِنَّهُ يَرَاكُمْ هوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَاتَرَوْنَهُمْ »(١) (صدق الله العظيم) .

نص القرآن واضح صريح في أننا لا نراهم ، أفنؤول النص ، ونحرّف الكلم عن مواضعه ، لأن إنساناً ضعيف البصر أو العقل أو القلب تخيّل ثم خال ؟ .

ياالله ! أما نحن فلو اجتمع من في الأرض جميعاً على قول يخالف قول الله تعالى لصدقنا كلام الله مؤمنين به مطمئنين إليه ، وضربنا بكلامهم عرض الأفق أيًّا ما يكونون .

إن كان كلامهم حقاً ، فهل هاجرت العفاريت إلى مكان سحيق فلم تعد ترى في هذه الأيام ؟ .

---

(١) سورة الأعراف : ٢٧ .

ما العفاريت التي كانت تعبث بكم كل هذا العبث الذي تذكرون ، إلا من شياطين الإنس الذين كانوا يقعدون لكم كل مرصد للعبث بكم ، والسخرية منكم وأنتم لا تعلمون ؟.

دلوني على مكان من أحفل الأمكنة بالعفاريت والمردة والشياطين وأنا زعيم لكم بارتياده في الوقت الذي تحددون ؛ على ألا يرافقني إلا تلك الأداة الصغيرة التي يكمن في جوفها الموت لأعاقب بها من تحدثه نفسه بمثل هذا العبث الأثيم .

يحتجون بتعريف موضوع لم ينطق به الكتاب الكريم ولم يأت به الصادق الأمين . أفنترك كلام الله الحق لأقوال باطلة لا ندري من قالها ؟ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين .

يحتجون بكتب تصف سطورها الكذب ، ويتركون كتاب الله الذي ينطق عليهم بالحق . أفلا يعقلون ؟ .

يحتجون بحديث العفريت الذي تفلت على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو في صلاته يريد أن يفسد عليه صلاته ، فهمّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يربطه في السارية

ليراه المسلمون إذا أصبحوا ؛ ولكنه ذكر دعوة سليمان : « قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي »[1] فلم يفعل . وهذا الحديث حجة لنا لا لهم ؛ لأن الرسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يفعل فلم ينظر إليه أحد ، ولا رآه إنسان غير النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد منحه الله استعداداً خاصاً يتلقى به الوحي ويرى الملائكة ، وقد مثلت له الجنة ومثلت له النار . فلا ينبغي أن تقيسوا أنفسكم برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو المؤيد بالآيات والمعجزات .

ويحتجون بحديث أبي هريرة : (لقد صدقك وهو كذوب إنما هو شيطان) في شأن الرجل الذي يسرق من تمر الصدقة ، ولا حجة لهم فيه ؛ لأن الشيطان يطلق على شيطان الإنس كما يطلق على شيطان الجن ، قال تعالى : « وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ »[2] ، فلعله شيطان من شياطين الإنس ، وما يتطرق إليه الاحتمال يسقط به الاستدلال .

---

(١) سورة ص : ٣٥ . (٢) سورة الأنعام : ١١٢ .

وبعد فلعلك لو قرأت قول الله تعالى : « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجنِّ فَقَالُوا : إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فآمَنَّا به ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً »[1] ، وقوله تعالى : « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجنِّ يَسْتَمِعونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا : أَنْصِتُوا ، فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ منْذِرينَ »[2] ، لعلك لو قرأت هاتين الآيتين قراءة متدبر متبصر تجلى لك الحق الذي لا ريب فيه وهو أن قول الله هو الحق ، وأن غيره هو الباطل ، فاستمسك بكلام الله وخلاك ذم .

---

(١) سورة الجن : ١ ، ٢ . (٢) سورة الأحقاف : ٢٩ .

إمام جريء

ومما يثلج الصدر أن تعرف رأي إمام ذكي جريء ، هو الإمام الشافعي – رضي الله عنه – فقد روي عنه أنه قال : من زعم أنه رأى الجن رددنا شهادته مـا لم يكن نبياً ؛ لأن الله تعالى يقول : « إِنَّهُ يَرَاكُمْ هوَ وَقَبيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ »[1] ، وكفى به حجة ، وكفى بكلام الله برهاناً .

---

(١) سورة الأعراف : ٢٧ .

يزعم بعض الدجالين أن لهم بالجن اتصال نسب وصهر ، وأن أحدهم يتزوج من جنيّة فتقضي له الحاجات ، وتطلعه على الغيب وتلد له من المردة من يكونون عوناً له على أمره كله .

وهذه كلها مفتريات وأكاذيب وخدع يحتالون بها على البله وضعاف العقول ليسلبوا أموالهم وهم عن كيدهم غافلون .

كيف يتسنى التزاوج بين الإنس والجن وبين الطين والنار ، بين المادة وما وراءها ، وبين عالم الغيب وعالم الشهادة ؟ .

كفى افتراء يا قوم . حسبكم ما جمعتم وأوعيتم من السحت الذي لا يغني عنكم من الله شيئاً .

وأنتم أيها المخدوعون ، حسبكم غفلة وبلهاً ، لا تمكنوا الدجّالين من العبث بعقولكم ، والسخرية من إدراككم ، وماذا تفيدون من هؤلاء الأفاكين الذنن يفترون على الله الكذب ولا يخجلون ؟ .

شياطين القتلى

يزعمون أنه إذا سفك دم إنسان في مكان ما ، ولغت الشياطين في دمه ، ثم تمثلت للناس في أشكال مختلفة ، وظهرت لهم هيئات منوعة ، تخيفهم وتفزعهم . وهذه خرافة لا أصل لها . لا يدل عليها كتاب ولا سنة ، ولا شهود حسي . وقل لمن ادعى غير ذلك : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين .

إدعاء الزواج من الجن

الشيطان للإنسان عدو مبين؛ لم يزل يحمل له العداوة منذ أخرجه الله من الجنة مذموماً مدحوراً لإبائه واستكباره واستنكافه أن يسجد لآدم أبي البشر . ولا جرم أن هذه العداوة تدفعه إلى أن يفسد على الإنسان أمر دينه حتى يحول بينه وبين الجنة .

وقد أخبرنا الله بهذه العداوة وحذرنا كيد الشيطان ، لنأخذ حذرنا ، ونفطن لكيده ومكره ، وخدعه ووساوسه .

قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً ، وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدوٌّ مُبِينٌ ، إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمونَ »(١) .

وقال تعالى : « الشَّيْطَانُ يَعِدكُم الْفَقْـر ، وَيَأْمُرُكُمْ بالْفَحْشَاءِ ، وَاللهُ يَعِدكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ »(٢) .

---

(١) سورة البقرة : ١٦٨ ، ١٦٩ . (٢) سورة البقرة : ٢٦٨ .

وقال تعالى : « قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ »(١) .

وقال تعالى : « وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيداً »(٢) .

وقال تعالى : « إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً ؛ وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً . لَعَنَهُ اللهُ ، وَقَالَ : لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً . وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ ، وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ ، وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دون اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مبيناً ، يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً »(٣) .

وقال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ

---

(١) سورة الأعراف : ١٦ ، ١٧. (٢) سورة النساء : ٦٠ .

(٣) سورة النساء : ١١٧–١٢٠ .

وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهونَ »[1] .

وقال تعالى : « إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ »[2] .

وقال تعالى : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدوٌّ مبينٌ »[3] ، وقال تعالى: « مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي »[4] وقال تعالى : « قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمخْلَصِينَ »[5] .

وقال تعالى : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ »[6] .

وقال تعالى : « أَرَأَيْتَكَ هٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً . قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً . وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ

---

(١) سورة المائدة : ٩٠ ، ٩١ .
(٢) سورة المجادلة : ١٠ .
(٣) سورة يوسف : ٥ .
(٤) سورة يوسف : ١٠٠ .
(٥) سورة الحجر : ٣٩ ، ٤٠ .
(٦) سورة الإسراء : ٥٣ .

وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ والْأَولادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهم الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً »[1] .

وقال تعالى : « وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً »[2] .

وقال تعالى : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا . إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ »[3] .

وقال الله تعالى : « الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ »[4] .

وقال تعالى : « اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ »[5] .

وقال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ »[6] .

وقال تعالى : « وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ

---

(١) سورة الإسراء : ٦٢ — ٦٤ .
(٢) سورة الفرقان : ٢٩ .
(٣) سورة فاطر : ٦ .
(٤) سورة محمد : ٢٥ .
(٥) سورة المجادلة : ١٩ .
(٦) سورة النور : ٢١ .

لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ : إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ ، إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ، إِنِّي أَخَافُ اللهَ ، وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ »(١) .

وقال تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ؛ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ »(٢).

وقال تعالى : « وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »(٣).

وقال تعالى : « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ »(٤) .

فكل هذه الآيات البينات تثبت عداوة الشيطان للإنسان وتبيّن تحذير الله تعالى كيده ومكره ، ولكن يا حسرة على العباد ! ما أطوعهم للشيطان وهو عدوهم المبين ، وما أعصاهم للرحمن وهو لا يدعوهم إلا إلى سعادتهم ، ولكن أكثرهم لا يعقلون .

---

(١) سورة الأنفال : ٤٨ .
(٢) سورة لقمان : ٢١ .
(٣) سورة الأنعام : ٤٣ .
(٤) سورة يس : ٦٠ .

إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا

اقتراف الذنوب ، والتورط في الآثام ، مما يضعف النفس الإنسانية ويمكّن الشيطان من تصديق ظنه عليها فتتبعه ، وتنخدع بوسوسته وإغرائه ، وتندفع إلى موالاته ، فيسوقها إلى سوء المصير . قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا »(١) ، وقال تعالى : « هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ؟ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ »(٢) .

وقال تعالى : « إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ »(٣) ، وقال تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا »(٤) ، وقال تعالى : « وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ . حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ : يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ

---

(١) سورة آل عمران : ١٥٥ .
(٢) سورة الشعراء : ٢٢١ – ٢٢٣ .
(٣) سورة الأعراف : ٢٧ .
(٤) سورة مريم : ٨٣ .

الْقَرِينُ . وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ »[1] . .

فهذه الآيات الكريمة تثبت لك في جلاءٍ ما بعده جلاء أن الإثم والمعصية والبعد عن ذكر الله تمكن الشيطان من زمام الإنسان ، فيقوده إلى الهلاك والخسران .

---

(١) سورة الزخرف : ٣٦ ــ ٣٩ .

إن عبادي ليس لك عليهم سلطان

إن التقوى والحرص على طاعة الله مما يقوي النفس الإنسانية ويدفع عنها كيد الشيطان ، وينبهها إلى خدعه ووساوسه ، ويذكِّرها فتبصر وتحذر . قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ »(١) .

وقال تعالى : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ »(٢) .

وقال تعالى : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً »(٣) ، وقال تعالى : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ »(٤) .

---

(١) سورة الأعراف : ٢٠١ .
(٢) سورة الحجر : ٤٢ .
(٣) سورة الإسراء : ٦٥ .
(٤) سورة النحل : ٩٨ – ١٠٠ .

هذه الآيات الكريمة تقنعك إقناعاً تاماً بأن التقوى وطاعة الله وإخلاص الدين له تهب النفس الإنسانية قوة تنجو بها من كيد الشيطان ، وتبصر شباكه وأحابيله ، فلا تتورط فيها . فالإيمان الحق يمنح النفس مناعة تقيها شر تسلط الشيطان عليها ، وعبثه بها وكيده لها .

فهل للمسلمين أن يستجيبوا لربهم ويقبلوا على طاعته ليعينهم على أمرهم ؛ وينجيهم من كيد الشيطان ومكره ؟.

الشيطان ضعيف الكيد

إذا استجبنا لله ورسوله ، وعملنا بما أنزل الله ، ضعف كيد الشيطان لنا ، وتقلص سلطانه علينا ، قال تعالى : « إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً »(١) ، وقال تعالى : « إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ »(٢) .

وقال تعالى : « وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ، وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ حَفِيظٌ »(٣) ، وعلى ذلك يستطيع الإنسان أن يكون بنجوة من كيد الشيطان ، إذا هو أكثر من ذكر الله تعالى ولجأ إلى حمايته واستعاذه من شره ، قال تعالى : « وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »(٤) .

---

(١) سورة النساء : ٧٦ .
(٢) سورة النحل : ٩٩ ، ١٠٠ .
(٣) سورة سبأ : ٢٠ ، ٢١ .
(٤) سورة فصلت : ٣٦ .

أولياء الشيطان

من الناس من يتخذ الشيطان وليًّا من دون الله ، أولئك هم الذين يستجيبون لإغوائه وإغرائه ، ويلبون دعوته إذا دعاهم لما يفسد عليهم دينهم من المعاصي والشرور والآثام ، وأولئك هم الخاسرون . قال تعالى : « وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً . يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً ، أُولٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً »(١) ، قال تعالى : « إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ »(٢) ، وقال تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ . كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ »(٣) .

والمشركون يعبدون الشيطان ، ويستجيبون له ما داموا معرضين عن الحق ، بعيدين عن الاستجابه لداعي الله ، قال الله تعالى : « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ

---

(١) سورة النساء : ١١٩–١٢١ . (٢) سورة الأعراف : ٣٠ .

(٣) سورة الحج ٣ ، ٤ .

أَهٰؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا : سُبْحَانَكَ ، أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ، فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلاَ ضَرًّا . وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ »[1].

---

(١) سورة سبأ : ٤٠ ــ ٤٢ .

ميزة

اختص الله سبحانه وتعالى نبيه سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ بأن سخَّر له الجن والشياطين ، يعملون بين يديه بإذن ربه ويصنعون له ما يشاءُ . قال تعالى : « وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ . يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ، اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ »(١) ، وقال تعالى : « فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ . وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ، وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ »(٢) .

وقال تعالى : « قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ، قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ »(٣) .

---

(١) سورة سبأ : ١٢ـ١٣ .
(٢) سورة ص : ٣٦ ـ ٣٨ .
(٣) سورة النمل : ٣٨ ، ٣٩ .

وقال تعالى : « وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ »(١) .

وهذا الملك لا ينبغي أن يكون لأحد بعد سليمان ـ عليه السلام ـ قال تعالى : « قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ »(٢) .

فلا ينبغي أن تستمع لأُولئك الأفَّاكين ، الأئمة الدجالين الذين يزعمون لك أنهم يسخرون الجن ، أو يستخدمون الشياطين ، فهذا من البهتان الذي يجدر بالعقلاء أن لا يصدقوه .

وما أكثر ما نقرأ في الصحف السيارة من أخبار الضحايا الذين خدعهم هؤلاء الخراصون حتى استلبوا أموالهم وهم عن كيدهم غافلون .

---

(١) سورة الأنبياء : ٨٢ . (٢) سورة ص : ٣٥ .

الجن لا يعلمون الغيب

سبق القول : أن الغيب لله لا يظهر عليه أحداً ، إلا من اصطفاهم من رسله فيوحي إليهم بما تقتضي حكمته أن يطلعهم عليه .

قال تعالى : « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً . إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً »(١) . وقال تعالى : « فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ »(٢) .

وأنَّى للجن أن يعلموا الغيب الذي استأثر الله سبحانه وتعالى به ، قد حجبهم عن السماء ، وعزلهم عن استراق السمع قال تعالى : « إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ »(٣) . وقال تعالى : « إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ

---

(١) سورة الجن : ٢٦ ، ٢٧ .
(٢) سورة سبأ : ١٤ .
(٣) سورة الشعراء : ٢١٢ .

شَيْطَانٍ مَارِدٍ . لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْـلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ . دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ . إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ »[1] .

وقال تعالى : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ، وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ »[2] .

بيّن تعالى أنهم لا يعلمون الغيب ، ولو كانوا يعلمونه ما لبثوا بعد موت سليمان يزاولون الأعمال الشاقة التي كان يسومهم إيّاها ، وبيّن تعالى أنهم معزولون عن السمع لا يستطيعون أن يسترقوا أخبار السماء ولو حاول ذلك منهم محاول لقذفه الله بشهاب ثاقب لا يعلم حقيقته وحقيقة ما يصيبه منه إلا الله تعالى .

فبطل ما يزعمه الدجّالون من أنهم يعاشرون الجن ، فيخبرونهم بالغيب ، ويموهون على البسطاء ، ويوهمونهم أنهم يعرفون مستقبلهم وما كتب لهم في صحف المقادير ، والغيب لله ، والمستقبل بيد الله ، إليه ترجع الأمور ، وخسر هنالك المبطلون .

---

(١) سورة الصافات : ٦—١٠ . (٢) سورة الملك : ٥ .

الجن المؤمنون

الجن مكلفون بعبادة الله تعالى ، وإن كنا لا نعرف صفة العبادة التي يقومون بها ؛ وكل ما نعرف أن الله طالبهم بالإيمان وفرض عليهم عبادات توائم الفطرة التي فطرهم الله سبحانه وتعالى عليها .

قال تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ »(١) وقال تعالى : « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ . قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ . يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ؛ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »(٢) .

---

(١) سورة الذاريات : ٥٦ ، ٥٧ . (٢) سورة الأحقاف : ٢٩ – ٣٢ .

وقال تعالى : « قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا : إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً »[1] .

(١) سورة الجن : ١ ، ٢ .

لكل نبي عدو

الأَنبياءُ قادة الناس إلى الخير ، ودعاتهم إلى الرشد ، وهداتهم إلى سواء السبيل ؛ من تبعهم واستجاب لدعوتهم أفلح وظفر ونجا ، ومن خالفهم وأعرض عنهم وعاداهم هلك وخاب وضل سعيه .

ونجاح الأَنبياء في دعوتهم يرغم أنوف الشياطين ، ويغيظهم ويفوّت عليهم قصدهم ، فهم لا يريدون إلا أن يهلك البشر جميعاً ويرتطموا في جهنم .

لهذا يعادون الأَنبياء ، ويجرون من يستجيب لهم من البشر إلى عداوتهم . قال تعالى : « وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً »(١) . وقال تعالى : « وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكم ، وإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ »(٢)

وقال تعالى : « إِنَّمَا ذٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »(٣) ، أَي أَن الشَّيْطَان

---

(١) سورة الأنعام : ١١٢ .
(٢) سورة الأنعام : ١٢١ .
(٣) سورة آل عمران : ١٧٥ .

يحاول أن يخوّف المؤمنين بأوليائه من الكافرين ، والمؤمن الصادق لا ينبغي له أن يخاف الشيطان ولا أولياء الشيطان. لأن قوه إيمانه تدفع عنه أذاهم ، وتردهم على أعقابهم خاسرين .

الصرع

يزعم الناس أن للشيطان قدرة على خبط الإنسان وضربه ومسّه مساً مادياً يؤدي به إلى الصرع ، وهذا زعم باطل كل البطلان ، روّجه في الناس طائفة من الدجّالين الذين يحاولون أن يحتالوا على الناس ليسلبوهم أموالهم ، ويعبثوا بعقولهم .

وإنك إن حاولت أن تقنع بعض الذين ينتسبون إلى العلم بفساد هذا الزعم فسرعان ما ينبري لك صاخباً محتجاً بقول الله تعالى : « الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ »[1] زاعماً أن المس في هذه الآية الكريمة هو ما يتوهمه .

والحق أن المس في هذه الآية الكريمة معناه الجنون . يقال : فلان به مس أي جنون . قال الراغب : (وكنى بالمس عن الجنون يقال يتخبطه الشيطان من المس . والمس يقال في كل ما ينال الإنسان من أذى : لن تمسنا النار ، مستهم البأساءُ والضرّاءُ ، مسني الشيطان ، من بعد ضرّاء مستهم ، إذا مسكم الضر) اهـ .

---

(١) سورة البقرة : ٢٧٥ .

وقال الفيروزبادي : (المس : الجنون) ، وذوقوا مس سقر : أول ما ينالكم منها ، كقولك وجد مس الحمى) .

والتخبط : الضرب على غير هدى . قال الراغب : الخبط : الضرب على غير استواء ، كخبط البعير الأرض بيده ، والرجل الشجر بعصاه ، واستعير لفسق السلطان ، فقيل : سلطان خبوط ، واختباط المعروف طلبه بعسف تشبيهاً بخبط الورق . وقوله تعالى : « يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ » فيصح أن يكون من خبط الشجر وأن يكون من الاختباط الذي هو طلب المعروف . يروى عنه – صلى الله عليه وسلم – (اللهم إني أعوذ بك أن يتخبطني الشيطان من المس » اهـ .

قال الفيروزبادي : (خبط الليل سار فيه على غير هدى ، وخبط الشيطان فلاناً وتخبطه مسه بأذى ، والخباط الجنون ، وقوله تعالى : « كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ » ، أي كما يقوم المجنون في حال جنونه إذا صرع فسقط ، أو يتخبطه يفسده اهـ.

وإذا كان التخبط هو الإفساد أو المس بالأذى كما يقول صاحب القاموس ، فلا جرم أنه الإفساد الذي يملكه ، والمس

بالأذي الذي يملكه ، وهو الإغراءُ والوسوسة ، ولا إفساد أشد منهما ، ولاأذى أبلغ منهما ؛ لأنهما يفسدان على الإنسان دينه ويضيعان عليه آخرته ، وعلى ذلك يكون معنى الآية الكريمة : (الذين يأكلون الرّبا) هم من الذين أغراهم الشيطان بالفساد ، فلا يتحركون إلا كما يتحرك كل من أغراه الشيطان بالفساد ، ولا يقومون من مجالسهم في الدنيا أو من قبورهم يوم القيامه ، إلا كما يقوم المجنون الذي يحاول أن ينهض فيسقط ، أو الذي لا يدري أين يتوجه أو الذي أفسده الشيطان فتنكب سبيل الرشد وسلك سبيل الغواية .

ولا جرم أن العصاة والكافرين لا يأتون ما يأتون من الإثم والكفر إلا وهم لا يعقلون حق العقل ، ولو كانوا يعقلون حق العقل ما أقدموا على ما أقدموا عليه من الإثم والكفر ، وما أفسد عليهم عقولهم إلا الشيطان الذي أضلهم بإغرائه ووسوسته .

قال تعالى : « وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ »[1] .

---

(١) سورة الملك : ١٠ .

فقد اتضح لك أن الآية الكريمة لا تعضد ما يقولون ، وليس لهم بها أدنى متعلق ؛ فهي كقوله تعالى : « كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ »[1] .

وقد قال تعالى : « وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ »[2] .

والمراد كما قال ثقات المفسرين : ما كان يوسوس له به الشيطان في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء . وما كان يغريه من الكراهة والجزع ، حتى ضاق بهذه الوسوسة وهذا الإغراء ، ولقي منهما عنتاً ونصباً وعذاباً ؛ فالتجأ إلى الله تعالى وسأله أن يكفيه ذلك بكف البلاء ، أو بالتوفيق في دفع الشيطان ورده بالصبر الجميل ؛ لأن الله لا يسلط الشيطان على أنبيائه ليقضي من تعذيبهم وإتعابهم وطره ، ولو قدر الشيطان على ذلك لم يدع صالحاً إلا وقد نكبه في نفسه وأهله وماله .

والعجب للناس ينسبون للشيطان ما لم يجسر على ادعائه

---

(١) سورة الأنعام : ٧١ . (٢) سورة ص : ٤١ .

لنفسه ؟. لم يدع الشيطان لنفسه إلا الإغواء والإغراء ، والإضلال والنميمة ، والأمر بتبتيك آذان الأنعام ، والأمر بتغيير خلق الله ، فما لهم ينسبون إليه ما لم يدّع لنفسه ؟ ولو أن الشيطان أُوتي القدرة على ضرب الإنسان أو خبطه أو مسّه مادياً لفتك بالإنسان فتكاً ذريعاً ، وما أبقى على الأرض من الكافرين دياراً . كيف وهو عدوهم الألد الذي يبغي لهم الغوائل ، ويتربص بهم الدوائر .

فلو كان في وسعه أن يصيبهم بشرٍّ غير الإغواء والإغراء ما انتظر بهم طرفة عين ، وإذا كان الشيطان يعترف بضعفه فيما أُتيح له فكيف يزعمون له القدرة على ما لم يتح له ؟ قال تعالى : « وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ : إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ، وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لي ، فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ، مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ »[1] .

كل ما يملكه الشيطان هو الإغراء والإضلال ، والوسوسة وخداع الإنسان حتى يفسد عليه دينه ، ويجعله من أصحاب

---

(١) سورة إبراهيم : ٢٢ .

الجحيم ، ثم يبرأ منه . قال تعالى : « كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ ، فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ : إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ ؛ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ »(١) .

ما ادعى الشيطان القدرة على شيء مما نسبتم إليه ، فكيف تدعون له ما لم يدع لنفسه ، وكيف تكونون شياطين أكثر من الشيطان ؟ .

وقد يستدلون بحديث البخاري عن أبي هريرة (ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد ، فيستهل صارخاً من مس الشيطان إلا مريم وابنها . ثم يقول أبو هريرة : واقرأوا إن شئتم : « وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ »(٢) ، ولا حجة لهم في هذا ؛ لأن المسّ فيه معنى غير المعنى الذي يتوهمون ، فهو من الأمور الغيبية التي نؤمن بها ولا ندرك كنهها ، ولو كان كما زعموا لأصبح الناس جميعاً صرعى يتخبطون ؛ وهذا غير الواقع المشهود .

لو أن للشيطان مثل هذا السلطان الذي يزعمون ما ترك

---

(١) سورة الحشر : ١٦ . (٢) سورة آل عمران : ٣٦ .

مؤمناً لم يلحق به ما يستطيع إلحاقه من الأذى فأفسد عليه كل شيء ، ولكن هيهات .

يقولون : إننا نسمع الشيطان يتكلم على لسان المصروع إذا تليت عليه (العزائم) فيذكر اسمه وقبيله ؛ ثم يقول : أخرج من عينه ، من أذنه ، من لسانه ، من بطنه ، إلى أن يقول : إصبع قدمه .

وهكذا أكذوبة سنكشف حقيقتها عما قليل .

حقيقة الصرع

الصرع علة تمنع الأعضاء النفيسة من أفعالها منعاً غير تام ، وسببه سدة تعرض في بعض بطون الدماغ ، وفي مجرى الأعصاب المحركة للأعضاء من خلط غليظ أو لزج كثير ، فتمنع الروح الحيواني السلوك فيها سلوكاً طبيعياً ، فتتشنج الأعضاء ، هذا ما قاله الطب القديم ، ولا أظن الطب الحديث غيَّر منه شيئاً .

وأكثر الذين يصيبهم الصرع ليسوا من أولي الشدة على الشيطان ولا من الذين يعبأ بهم الشيطان شيئاً ، فليسوا من العلماء العاملين ولا من الداعين إلى مخالفة الشيطان ، الذين يبصرون الناس بمكايده ، ويفتحون أبصارهم وبصائرهم على شباكه ، ولا من المرشدين الذين يدعون الناس إلى سبل الخير والرشد التي تفضي بهم إلى دار النعيم ، بل هم في الأعم الأغلب من الشبان والفتيات بعد سن البلوغ ، حين تسيطر عليهم العاطفة الجنسية ، ويعانون آلام الكبت أو يستجيبون لها استجابة غير طبيعية . وآية ذلك أنك تجد المصاب بهذا الداء إذا تزوج من قبل أن يستفحل داؤه يبرأ

منه ، ذلك بأنه بالزواج يتخفف من أوقار الكبت والمقاومة ويدع العادة الخبيثة التي تجرّ ذلك الداء الوبيل ، أما ما تسمعه من الألفاظ على لسان المصروع فما هو إلا معلومات قديمة مما سمع من البيئة التي نشأ فيها ، وآثار حكايات اندست في عقله الباطن في غفلة منه ، فلما أغفى عقله الواعي لتأثير هذه العلة تنبه عقله الباطن ؛ فأوحى إليه الكلام بكل ما كان مكنوناً فيه من هذا الهذيان .

ويقولون : إن المريض يفيق إذا قرئت عليه هذه الرقى أو شم رائحة البخور .

والجواب يسير : وهو أن للنوبة غاية وحداً ، فإذا بلغت غايتها وانتهت إلى حدها أفاق المصاب من تلقاء نفسه .

تمثيل

وعجب أن نرى من الناس من يمثـل دور المصروع ، ويحاكي اضطرابه وتشنج أطرافه ، ويدعي أن الجن ينطق بلسانه ، فينخدع أهلـه به ، ويلتمسون له العلاج عند الدجالين الذين يسارعون إلى زيارته ويحرقون عنده البخور ويتلون الرقى ، ثم ينهالون عليه بالضرب المبرح زاعمين أنهم يضربون الجني ، وسرعان ما ينطق الجني واحداً بالخروج من العين أو الرأس أو القلب أو غير ذلك من الأعضـاء النفيسة ، ولكنهم يرغمونه بزعمهم على الخروج من خنصر القدم اليسرى ، ولقد شهدت مرة تمثيل هذا الدور .

جاءني رجل في غير وقت زيارة وهو مهموم مكروب ، تعرف في وجهه الغمّ الذي يأخذ على صاحبه السبل ، ويوصد دونه أبواب التفكير ، ورجاني أن أخرج معه لمشاهدة ابنه المصروع ، فأشرت عليه أن يحضر له الطبيب فأبى إلا أن أخرج معه وألح في ذلك وأسرف في الإلحاح ، وكان ممن يحضرون درسي ويسمعون إنكاري قدرة الجن على إصابة الإنسان بغير الإغراء والوسوسة وكأنه أراد أن

يقنعني من طريق المشاهدة والتجربة بأن الحق غير ما أقول خرجت معه وذهبت إلى منزله ورأيت ابنه وهو يافع يبلغ الخامسة عشر من عمره ، وكان نائماً في فراشه ، وكان نبضه وتنفسه وحرارته طبيعية ، ناديته فلم يرد ، وكررت النداء فلم يخرج من صمته ، ثم لم يلبث أن أتي بحركات تشنجية غريبة ، وفي غفلة منه لمست عضده فإذا هي مسترخية فلما أحس بيدي تلمسه شد عضلاته حتى توترت ، وأمسكت بكفه فإذا هي متشنجة ؛ فضغطت عليها فلم يستطع أن يقاوم ضغطي ؛ فلانت كفه في يدي .

كل هذه الظواهر أقنعتني بأنه متصارع لا مصروع ، ومتكلف ليس بذي جنة ، ولكني جاريته وعدت أناديه باسمه .

ـ يا فلان ؟ .

ـ لست فلاناً ؟ .

ـ فمن أنت إذاً ؟ .

ـ أنا واحد ؟

ـ من تكون أيها الواحد ؟ .

ـ لا أقول ، لأنك لا تعرفني .

ودار بيني وبينه حوار طويل لا أضيع وقت القارئ بإيراده ، لم يكن كلامه فيه أكثر من كلام يافع في مثل سنه وثقافته ؛ ليس فيه علم ولا معرفة ولا إحاطة بشيء خارج المحيط الذي يعيش فيه . وأخيراً قلت له : اترك فلاناً .

ـ لا . لا أتركه .

ـ لمـاذا ؟ .

لأني أحرسه من ولدي ، فإن فلاناً يوم ضربه أبوه الضرب الشديد داس على رجل ولدي فأراد ولدي قتله ، ولكني خلصته منه وقمت بحراسته .

والذنب كله ذنب أبي فلان ، فلولا أنه ضربه الضرب المبرح ما حصل شيء من كل ما حصل . وهنا بدت الحقيقة سافرة ، ووضعت يدي على مفتاح السر ، فحين ضربه أبوه تكلّف كل هذا رجاء أن يستثير عطف الوالد وشفقته ، فجعلت والده يتعهده أمامه بأنه لن يعود إلى ضربه أبداً .

ثم خرجت بعد أن لمس أبوه الحقيقة واقتنع بها بعد

أن أراد أن يقنعي بضدها ، ولم يعاود الولد الصرع بعد ذلك .

ولو تتبعت أمثال هذه الحال لتبين لك أن معظمها من هذا القبيل .

يقسو الوالد على ابنه أو ابنته أو الزوج على امرأته ، فيريد كل منهم أن يستثير الرحمة والعطف من قلب الوالد أو الزوج فيعمد إلى هذه الحيلة التي قلما يتنبه لحقيقتها أحد ؛ وكثيراً ما ينجحون في خداع الغافلين .

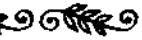

الزار

لشد ما شقي البيت المصري ؟ شقي بالجهل ، شـقي بالمرض ، شقي بالإسراف والتبذير ، شقي بالفقر ، شقي بالخلاف والتفرق والتباغض ، شقي بكل ذلك وأمثاله . ثم هم هؤلاء يضيفون إليه شقاءًا جديداً بذلك الزّار الذي ابتدعوه ، وآمنوا به ، ونسبوا له القدرة على احتلال الأجسام والتكلم بألسنتها ، والتصرف فيها بالمرض والشقاء .

تلك عقيدة خاطئة ، وبدعة ممقوتة ، وعادة سيئة ، وبلاء جرّه علينا الجهل والغفلة والاستسلام للماكرات الخاتلات .

يعتقد كثير من النساء أن الجن يستحوذ على أجسامهن فيحركها كما يشاء ويرقصها كما يريد وينطق على ألسنتهن ويرميهن بالعلل والأوصاب إن فرطن في جنبه ، ثم يشفيهن إن أجبنه إلى ما يشتهي .

وهو في نظرهن متعدد الأنواع من رجال ونساء ، وسادة وعبيد وسيدات وإماء .

وحفلة الزّار عار وشنار ، طبل منكر الأصوات ، وغناء ثقيل الحركات ، مزعج النغمات ، وعبادة للشيطان ، وكفر بالرحمن وإزعاج للجيران بهذا البهتان .

تشكو المرأة داءً من الأدواء ، فلا يستدعي الطبيب ولا تستشيره ، ولكنها تعمد إلى شيخة الزّار تستفتيها في أمرها ، وتسألها عن أصل علتها ، وهذا يسرها أن تكثر تابعاتها ، بل ضحاياها ، فتوهمها أن الزّار هو أصل مرضها . وسبب دائها ، فإن شاءت أن تبرأ من هذا الداء فلتقم له حفلة تراق فيها الدماء ، دماء الكباش فما فوقها ، ودماء الفضائل ثم توهمها أن الزار يطلب أنواعاً من الحليّ ، وألواناً من الثياب قد يضيق بها الزوج ذرعاً ، إن استجاب لها وقع تحت طائلة الدين وإن لم يستجب لها فويل للأسرة من شقاء محتم ، وكثيراً ما تكون هذه المطالب الباهظة سبباً في الفرقة بين الزوجين ، وتشتيت شمل الأسرة وضياع الأولاد .

الزّار مرض عصبي تنفث سمومه شيخة الزّار بالإيهام والإيحاء والاستهواء ، فإذا آنست من امرأة ضعفاً في الارادة سلطت عليها أحابيلها ، وما زالت تردد على سمعها أنشودة

الزّار من حين إلى حين حتى تعتقد أن الزّار احتل جسمها ، وملك روحها ، فتعنو لهيبته وتخضع لسلطانه .

ولقد سمعنا أن كثيرات شفاهن من الزّار عِصِيٌّ غلاظ سلطها الأزواج على ظهورهن . فخرج الزّار إلى غير رجعة ، ومضى إلى حيث لا يرجى له إياب .

إن الاستسلام للنساء في مثل هذه الأمور ، يقوي أصول الشر في نفوسهن ، ويغذي هذه العقائد الفاسدة ، والعادات الوبيلة .

فخليق بالزوج أن يكون شهماً حازماً لا يبيح أن تقع في بيته هذه المخازي ، ولا يرضى أن يحدث هذا المنكر بين سمعه وبصره وليعالج زوجه المريضة بالوسائل الطبيعية المشروعة التي أمرت بها الشريعة المطهرة .

من النساء من إذا آنست من زوجها الحب والعطف ، ورأت أن ضيق ذات يده يحول بينه وبين إجابتها إلى رغباتها ولباناتها من الحليّ والثياب ، تصنعت هذا الداء لتستغل حبه وعطفه ، فيأتي لها بما تشتهي ولو كلفه ما لا طاقة له به .

ومن العجيب أن هذا الزّار لا يفشو إلا بين نساء المسلمين ، ولا يجد مطايا ذللا يمتطيها إلا بينهن .

وما باله لا يهتدي سبيلا إلى نساء الغرب ؟ فهل ترى نساءنا أجمل من نسائهم فهام بهن الجن وشغفته حبًّا ، هل يخشى الجن الغربيات ويتحاشاهن فلا يمسهن بسوء لأنه يرى رجالهن يستحوذون على بلاد الإسلام ويتحكمون فيها .

فيا لله للمسلمين ؟ .

وقاصمة الظهر أن هذا الداء الخبيث سرى بين فريق من الرجال فتراهم يجتمعون مع النساء في حفلة واحدة ، ولا تسل عما يقع هنالك من الفساد .

فمتى تتكاتف الأمة على درء هذا الخطر الخلقي الداهم؟

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

السنة والبدعة

من الخير أن أقفك على السنة لتعرفها ، وتستمسك بها ، وتعض عليها بالنواجذ ، وتجتنب البدعة ما وجدت إلى اجتنابها سبيلا .

السنة : ما أمر به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو فعله أو أقره .

والبدعة : كل زيادة في الدين مستحدثة يراد بالسير عليها زيادة التقرب إلى الله تعالى .

إن الشيطان حين أغرى الناس بالبدعة لأول الأمر ، يوم كانوا مستمسكين بالسنة ، حرّاصاً عليها ؛ ما جاءهم إلا من طريق الرغبة في التقريب إلى الله تعالى ، فخيل إليهم أنهم لو فعلوا هذا الأمر أو ذاك مما لم يأت به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لازدادوا إلى الله قرباً ففعلوا ذلك مخدوعين ، ولو كانوا يحسبون أن ذلك يزيدهم من الله بُعداً ما فعلوه ، ولفروا منه فرارهم من الحنث العظيم .

هذا أصل البدع ، ثم غلا الناس فيه غلواً كبيراً حتى استفحل الداءُ وعم البلاءُ .

فالخير إذاً في الرجوع بالدين الحنيف إلى يسره وسهولته وسماحته ، يوم أتمه الله وأكمله ، ولم يحوجنا إلى إضافة جديد إليه .

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « شر الأمور محدثاتها » .

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « إياكم ومحدثات الأمور ؛ فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة) .

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : (كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد) . فإذا أيقن الذين يتقربون إلى الله تعالى بالبدع ومحدثات الأمور أن عملهم مردود عليهم ، وأنهم يؤاخذون به ، ولا يثابون عليه أراحوا أنفسهم من عناءٍ لا يجدي ، وتعب لا يفيد ، وعمل باطل مردود .

وهبك قربت هدية إلى عظيم فردها عليك ، أتنتظر منه ثواباً على هدية مردودة ، وعطاءٍ مسخوط ؟ .

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) ، فالمؤمن الصادق لا يتبع

البدع التي يمليها الهوى ؛ وإنما يتبع ما جاء به الرسول الأمين ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا يكون مشرعاً لنفسه ولا متعبداً لهواه « أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ ، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ، فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ ؟ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ »[1] .

وما نشأت البدع إلا من الغلو في الدين ؛ وقد نهينا عنه . قال تعالى : « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ »[2] .

ولم يبالغ من قال : إن صاحب الكبيرة ترجى توبته ، وأمّا صاحب البدعة فلا ترجى له توبة .

ذلك بأن صاحب الكبيرة يقترف ما يقترف وهو معتقد أنه آثم عاص لله تعالى . فمثله يرجى أن يذكر ذنوبه فيندم ويتوب إلى الله منها .

---

(١) سورة الجاثية : ٢٣ .
(٢) سورة المائدة : ٧٧ .

أما صاحب البدعة ، فإنه يفعل ما يفعل ، وهو معتقد أنه يتقرب إلى الله بما يفعل ، فكيف يعقل أن يتوب إلى الله من عمل يعتقد أنه قربته عند الله ؟ .

ليت المسلمين يتعاونون على إحياء السنن وإماتة البدع ، وإذاً تستقيم أحوالهم ، ويرضى الله عنهم ، ويؤتيهم من لدنه أجراً عظيماً ، وخيراً كثيراً . وما التوفيق إلا بالله .

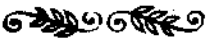

قلتنا وكثرتهم

إذا دعونا الناس إلى الرجوع إلى سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ونبذ البدع ومحدثات الأمور ، اتهمونا بأننا قلة قليلة ، ومخالفونا كثير .

ونقول لهم : ليست الكثرة دليل الحق . فقد تكون القلة على حق ، وتكون الكثرة في ضلال مبين .

لقد كان النبي – صلى الله عليه وسلم – وحده في جانب والعالم كله في جانب آخر ، وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – على حق ، وكان العالم كله تائها في مجاهل الضلال .

ثم كان معه أصحابه الذين آمنوا به وصدقوه ، وكانوا في ناحية والعالم كله في ناحية . وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه على هدى ، وكان العالم كله في ضلال مبين .

والمسلمون اليوم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود إذا قستهم بمجموع الأمم التي تدين بغير الإسلام .

أفيصح بعد هذا أن تحكم للكثرة بأنها على الهدى ، وعلى القلّة بأنها في ضلال مبين ؟ .

ومالك لا ترد الأمر إلى البرهان والدليل ، فمن أيده الدليل والبرهان فهو على حـق ، ومن لم يؤيده الدليل والبرهان فهو ضال ، والله منحك العقل لتميز به الطيب من الخبيث ، والحق من الباطل ، والرشد من الضلال ، فلا تكن سيّقة لغيرك ، فإنك ستندم يوم يتبرأ المتبوعون من التابعين ، وإذا كنت لا ترضى أن تنزل عن مالك للناس فما لك تنزل لهم عن عقلك ودينك ، وهما أثمن شيء لديك ؟ واستمع لقول الله تعالى : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ »(١) ، وقوله تعالى : « وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ »(٢) .

وقوله تعالى : « وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ »(٣) .

---

(١) سورة يوسف : ١٠٦ .
(٢) سورة الأنعام : ١١٦ ، ١١٧ .
(٣) سورة سبأ : ١٣ .

وقوله تعالى: «وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِين»[1]

ويعجبني هنا التمثيل ، يقول الشاعر :

تعيرنا أنَّا قليل عديدنا
فقلت لها : إن الكرام قليل

وما ضرنا أنَّا قليل ، وديننا
صحيح ، ودين الأكثرين عليل

---

(١) سورة يوسف : ١٠٣ .

غبطة

يسرني أن أعلن أن بعض الذين كانوا يعيبون عليّ قولي أصبحوا ـ بحمد الله ـ يقولون كما أقول ، ويعلنون قولهم في المجامع الخاصة والعامة ، ويرسلونه من فوق ذوائب المنابر ، فأُسدي إليهم أوفى نصيب من الشكر ، وأبتهل إلى الله أن يزيدهم إيماناً وتوفيقاً ، واستمساكاً بالحق وانتصاراً له ، فإن الرجوع إلى الحق فضيلة ، التمادي في الباطل رذيله ، وقد أصاب من رجع إلى الحق ولو بعد حين .

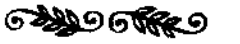

ختام

هذه كلمات يشهد الله أنه ما بعثها إلا الإخلاص للحق والغيرة عليه فإن أصابت موقعاً وصادفت قبولا ، فالحمد لله وحده ، يهدي من يشاءُ إلى صراط مستقيم ، وإن كانت الأخرى فإني لا أيأس من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

والله أسأل أن يوفقني للحق ، وأن يعنني على الجهاد في سبيله وأن يغفر لي زلة القدم ، وعثرة القلم ، إنه واسع المغفرة ، لا رب غيره ولا مأمول إلا خيره ، له الحكم لا معقب لحكمه وإليه المصير .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

أبو الوفاء محمد درويش
ليسانسيه في القوانين

تقريظ

تفضل حضرة الشاعر العبقري النابغة الغيور على دعوة الحق الأستاذ محمد السيد صادق عرنوس - رحمه الله - بقلمه ولسانه وسائر مواهبه ، فحيا كتاب «صيحة الحق» يوم ظهور الطبعة الأولى منه بهذه الدرّة الفريدة الصماء فنثبتها هنا اعترافاً بفضله ؛ وتقديراً لمواهبه .

قال - رحمه الله - :

صَيْحَةُ الحَقِّ

سمع المكابر صيحة الحق
فهوى صريعاً فاقد النطق

ما زال يهذي غير محتشم
يلقى من البهتان ما يلقى

نفثات صِل هاج هائجه
يصمي ضحاياه ولا يرق

حتى أُصيب غداة فاجأه

هذا الكتاب بغصة الحق

سفر بحسبك أن صاحبه

قد صاغه من معدن الصدق

رَأْيُ المماري في محجته البيضاء

أخرقُ بيَّن الخرق

ومتى كبا من عثرة قلم

من نبعي التوحيد[1] يستسقي ؟

نبعان كثجاجان مذ طُمسا

شاع الظما والجدب في الخلق

درويش قد أنبطت ماءهما

للمهتدي أصفى من الودق

خلصته من كل شائبة

قد عكرته وباطل رتق

---

(١) نبعي التوحيد : الكتاب والسنة .

لكن أعـداء الهـدى حسبـوا
نشر الهـدى حرباً على الرزق ؟
فبـدت نفـوسهم تثـور وقـد
ضاقت بفعـلك غـاية الضيق
كـم موقف عبست وجـوههم
فيـه ظهـرتَ بوجهك الطلـق
ولكم صبرت عـلى أذيَّتهـم
تنهـال من طعـن إلى رشـق
عرّفتهم عمـل العقـول بمـا
أوتيت في التفـكير من عمـق
وأريتهـم ما يـأخـذون ومـا
يدعـون في أدب وفي رفـق
ترجـو سـيادتهم ومن عجب
أن ليس يعجبهم سوى الـرق ؟
لاقيت ما لاق ابن راشـد من
طيش الهـوى ورعونة الحمـق

فكـلاكما في صـبره مثـل
للقـائمين بنصـرة الحـق

ولأنتمـا في كـل تضحيـة
يحتـاجها كفـآن في السبـق

فلتطلعـا شمسـين في أفـق
هو ـ لا يغيب ـ وأنت في أفـق

محمد صادق عرنوس
«رحمه الله»

فهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم الكتاب	أ
عهد القارئ مع الكتاب	٦
تذكرة للقارئ الكريم	٦
مقدمات :	
١ — أمل ورجاء	٩
إنما الأعمال بالنيات	١١
٢ — قوة الأمة بإيمانها	١٢
٣ — طغيان البدع والخرافات	١٣
٤ — تفاقم الحال	١٥
٥ — العاقبة للتقوى	١٧
٦ — الحرب العظمى...	١٨
تنبيه للمعلق	٢٠
٧ — عودة على بدء...	٢١
٨ — أسرى الجهالة	٢٣
٩ — انصراف عن الحق	٢٤
لعلَّ .. تعليق من المحقق	٢٥
١٠— مثل واقع	٢٦
١١— عـزيمة	٢٨
تعليق للمحقق	٢٩
١٢— مضاء وعزيمة	٣٠
١٣— التبين قبل الحكم	٣٢
تعليق للمحقق	٣٣

الموضـــوع	الصفحة
١٤ــ مضايقة لا أبالي بها	٣٤
١٥ــ كتمان الحق	٣٦
١٦ــ ســعاية	٤٣
١٧ــ نصر من الله	٤٦
١٨ــ برح الخفاء	٤٧
١٩ــ محاضرات..	٤٩
٢٠ــ الصلح خير	٥٥
٢١ــ نهــاية	٥٩
بيــان	٦١
التوحيــد..	٦٣
الشــرك...	٧٢
ألوان من الشرك..	٨٣
إلحاقاً للبحث ــ من تعليق المحقق	٨٥
الأولياء	٨٦
مَن الوَليّ ؟	٨٨
النصوص اللغوية..	٩٧
نتيجة البحث	١٠١
إيضاح ــ تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم	١٠٢
الولاية كسبية	١٠٣
هل يقترف الوليّ معصية ؟	١٠٦
حق غفل الناس عنه	١١١
(فائدة) ــ من تعليق المحقق...	١١٤
الخوارق	١١٥
لا يعلم الغيب إلا الله	١١٨

الموضوع	الصفحة
الكرامة	١٢٤
إغواء المضلين	١٣٢
فضل الله على المتقين	١٣٧
دعوة لا صحة لها	١٣٨
شَرَكٌ وَشِرْكٌ	١٣٩
هل يملك الأولياء ردّ القضاء ؟	١٤٣
شد الرحال	١٤٧
النذر — هل يباح للأولياء	١٦٠
نتيجة	١٦٥
مغالطة	١٦٦
هل يباح القسم بالأولياء ؟	١٧٢
الاستغاثة بالأولياء	١٧٤
التوسل	١٧٩
النصوص اللغوية	١٨٠
أقوال المفسرين	١٨٣
أحب الوسائل إلى الله	١٩٤
خدعة من خدع الشيطان	١٩٨
ما ذاك ؟...	١٩٩
توجيه	٢٠٤
والآن !	٢٠٧
وسيلة الأنبياء	٢٠٨
قول مردود	٢١٣
السؤال بأسماء الله تعالى وصفاته	٢١٧
تحذير	٢١٩

الموضـــوع	الصفحة
بهتان عظيم	٢٢١
سرّ من أسرار فاتحة الكتاب	٢٢٣
الفاتحة وسيلة وغاية	٢٢٤
التوسل بالأشخاص	٢٢٥
حجتهم داحضة	٢٢٦
أحاديث الاستسقاء	٢٣٣
دع ما يريبك	٢٣٨
زيارة القبور	٢٣٩
زيارة قبر الرسول – عليه الصلاة والسلام –	٢٤١
نداء الأوفياء ودعاؤهم	٢٤٤
مثـــال	٢٥٠
أيصح الجزم بولاية بعض الأفراد ؟...	٢٥١
العالم الباطن	٢٥٥
إدحاض	٢٦٦
خـدع	٢٦٩
الذكـــر	٢٧٣
شيء عجيب	٢٨٢
إلحاد في أسماء الله	٢٨٦
خير مضاع	٢٨٩
الأذان	٢٩٠
ثورة	٢٩٣
حتى العلماء	٢٩٤
غـــرور	٢٩٥
الجن	٣٠٥

الموضـــوع	الصفحة
مزاعم الناس	٣٠٨
إمام جريء	٣١٣
شياطين القتل	٣١٥
ادّعاء الزواج من الجن..	٣١٦
إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا	٣٢١
إن عبادي ليس لك عليهم سلطان	٣٢٣
الشيطان ضعيف الكيد	٣٢٥
أولياء الشيطان	٣٢٦
مـــيزة	٣٢٨
الجن لا يعلمون الغيب...	٣٣٠
الجن المؤمنون	٣٣٢
لكل نبي عدو...	٣٣٤
الصـــرع	٣٣٦
حقيقة الصرع	٣٤٣
تمثيل	٣٤٥
الـــزّار	٣٤٩
السنة والبدعة	٣٥٣
قلّتنا وكثرتهم	٣٥٧
غبطة	٣٦٠
ختـــام	٣٦١
تقريظ	٣٦٢
صيحة الحق	٣٦٢
فهرس	٣٦٦
كتب المؤلف المطبوعة	٣٧١